شعر أبي فراس الحمداني وابن زيدون في فترة الأسْر والسجن
دراسة موازنة

د/ هند ماهر أبو العطا إبراهيم
أستاذ مساعد أدب بقسم اللغة العربية
كلية الآداب - جامعة الملك خالد

ملخص البحث

تناول البحث فترة الأسر والسجن لكل من أبي فراس الحمداني وابن زيدون ؛ فالأول ظل في أسر الروم أربع سنوات، يترقَّب أن يفديه ابن عمه كل يوم ــ وكان جديرًا بالفداء لما له من سابقة فروسية وتصدّره مشاهد البطولات، حيث ظلَّ متخلِّيًا عنه لمدة أربع سنوات لا يستجيب فيها لرسائل العتاب التي يرسلها إليه الشاعر، ولا يحفظ هيبة الإمارة التي أُسِر أحد أفرادها، ولم يفتدِهِ إلا مع عدد من جنده ..وابن زيدون شاعر مطبوع بلغ مرتبة راقية بشعره فصار غرضًا لسهام الحسد من المحيطين، غير آبهٍ بهم حتى وقع تحت سهام سعاياتهم فانتهى به الحال إلى ما انتهى، فأنَّى له النصير والمعين ؟ وأنى له مخرج ينفذ منه إلى شموس الحرية سوى الهرب الذي اجترأ على القيام به بعد خمسمائة يوم من غياهب السجون.

وقد تناولت بعض ما أبدع كل منهما أثناء تلك الفترة، وما أحاط بهما من جوانب تشابه في الظروف أو الأشخاص المحيطين، وما اختلفا فيه ــ كلٌّ حسب مكونات نفسه واستعدادها ــ فالأول أمير فارس خاض الحروب وشهد المعارك، رفعه نسبه وفروسيته للإمارة، إضافة لكونه شاعرًا بليغًا، والثاني أديب رفعه أدبه إلى مرتبة الوزارة، رتع في مجالس الحب واللهو حيث تزخر كتب الأدب بأخباره مع ولادة بنت المستكفي التي تنكرت له لِتهوى غيره، فعبر كل منهما عن واقعه الأليم.

وجاءت الأغراض لتبرز جوانب الشبه والاختلاف بين الشاعرين، وهي كالتالي: الغزل، والعتاب والاستعطاف، والشفاعة، والشكوى، والمدح وأثره، والدعاء، والفخر، والشيب المبكر، والمفارقة، والطبيعة، والمفردات الدينية.. وقد حرصت على أن يُفضيَ كل غرض منهما إلى ما يليه.. وقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج التحليلي، مع الميل إلى عقد الموازنات بين شعر الشاعرين ما استطعت إلى ذلك سبيلا؛ لأقف على جوانب الاتفاق أو الاختلاف إنْ في الشاعر نفسه أو في الشعر، مُتَّخذةً من الشعر هاديًا للوصول إلى فهم بعض جوانب شخصية الشاعر أو نفسيته.

الكلمات المفتاحية

الأسر. أبو فراس. ابن زيدون. التشابه والاختلاف. الغزل. المفارقة. الطبيعة

Research summary

The research has been discussed the lifetime of;
"ABA FERAS ALHAMDANY and IBN ZAIDON" behind the jail.
The first has been captured by the roman for 4years, and his cousin didn't pay for him.

It was worthy of redemption because of its predecessor Forsyth and issued scenes champions, where he had been abandoning him doesn't respond to messages sent by the poet, and doesn't save the emirate prestige which captured one of its members and no one sacrifice but his soldiers.

IBN ZAIDON poet achieved the status of upscale his poet until he became a target for the arrows of envy from those around, until he has been arrested under their temptation and ended the case to its conclusion without someone behind, with no exit to arrive him to the sun of freedom but to escape which he dare to do after 500 days of prison clouds.

It also discussed all they had crested during this period and what's surrounded them from aspects of similarities in the circumstances and characters, and their difference-upon their selves and their preparations-

The former knight prince fought wars, witnessed the battles, and raises the proportion and knighthood of the emirate. In addition to being an eloquent poet.

The second was writer; his literature raised him to rank of ministries, relaxed in the councils of love and fun, where literature abounds with telling about his news with "WALADA BENT ESTKFA" who ignored him for others, so each one of them had expressed his own painful reality.

I followed in these studies the analytical approach for the poet as I preferred to make comparison between writer's poetry as possible as I could, so I could recognize the difference and similarities aspects either in writer psychological side or his poetry.

I had been used from the poetry an evidence for reaching the writer's physiological or personal sides.

شعر أبي فراس الحمداني وابن زيدون في فترة الأسْر والسجن دراسة موازنة

مقدمة البحث

خلّفت الحضارة العربية والإسلامية في عصورها الذهبية نهضة علمية وآثارًا أدبية عظيمة لا ينضب معينُها، ولا تجفُّ ثمارها، وإذا كان الأدب هو موضوع هذا البحث، فإن عصور نقاء الشعر تركت لنا نماذج تُحتَذى إلى اليوم، أبقاها لنا جمال ألفاظها وطرافة معانيها وبراعة صورها.. ومن هؤلاء اخترت شاعرًا مشرقيًّا هو أبو فراس الحمداني، وآخر أندلسيًّا هو ابن زيدون، وقد دفعني إلى الجمع بينهما في الصفحات التالية التقارب الزمني؛ حيث ولد الأول عام ٣٢١ هـ، وولد الأخير عام ٣٩٤ هـ، إذن ولد كلاهما في القرن الرابع، وكذلك التشابه في الواقع والظروف المحيطة؛ فكلاهما قضى جزءًا من حياته خلف القضبان، وهناك أيضًا تشابه المحيطين بهما في التعامل مع كل منهما حيث ذاق كلاهما الخذلان فذاقا رنقًا بعد صافٍ، وغدت الحياة ضيقةً في عينيهما، حتى غدا الممدوح مهجُوًّا.. وسوف أقصر بحثي على تلك المرحلة الفاصلة من حياة كلا الشاعرين، وهي فترة الأسر عند أبي فراس الحمداني، وفترة السجن عند ابن زيدون، مع مقدمات تلك المرحلة وملابساتها، وذكر محاولات كل منهما لطلب العون من أقرب الناس إليه، ومقدار النجاح أو الإخفاق في ذلك، ومدى الخذلان الذي تعرض له، وأخيرًا ظروف خروجه من قيوده.

وقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج التحليلي والذي يتعرض لشعر الشاعر وما يؤثر فيه من عوامل خارجية كالبيئة والمجتمع والحالة الاقتصادية أو السياسية، أو عوامل داخلية كمكونات الشخصية أو الثقافة الذاتية، وانعكاسات كل ذلك على شعره، من خلال بعض الموازنات بين شعر كل منهما.

وكان المؤثر الواضح في شعر الشاعرين ـ خلال هذا البحث ـ هو قيود السجن أو الأسر، وهي مع صعوبتها على المرء إلا أنها على الشاعرين كانت أصعب؛ نظرًا لكونهما شاعرين يتميزان به من إحساس مرهف ـ كشاعرين ـ بجانب ما أحسَّا به من تبدُّل الحال وسوء المآل.

رغم اتساع رقعة الدولة الإسلامية في العصر العباسي إلا أن الأقدار قد تجمع بين بعض أبنائها جمعا يُدهش العقول، فتتشابه أحوالهم وإن باعدت بينهم البلدان، فما أعجب أن نرى رجلين، أحدهما في المشرق والآخر في المغرب، كلاهما شاعر، وكلاهما ذو شأن، وكلاهما قيَّدت القضبان حرِّيته، وكلاهما تخلَّى عنه الأقربون!

ومع أن تلكم النظرية لا تصدق كثيرًا، إلا أنها مع قلة حدوثها تنطبق أيما انطباق على شاعرين: الأول مشرقي وهو أبو فراس الحمداني الذي عاش في القرن الرابع الهجري وقد قضى في الأسر أربع سنوات، والثاني ابن زيدون الشاعر الوزير المشهور في القرن الخامس الهجري بالأندلس والذي مكث بالسجن خمسمائة يوم.. وما أزراهما إلا اشتغالهما بالسياسة أو قربهما ممن يعمل بها، أما أبو فراس فكان أميرًا من بيت ملك، وقع في أسر الروم فبقي به ما بقي، وأما ابن زيدون فكان قربه من صناع القرار وحبه لولادة بنت المستكفي مدعاة لحسد الحاسدين مما جعلهم

يكيدون له حتى انتهى به الأمر سجينا.. وسنعرض لأوجه التشابه بين الشاعرين من خلال ما نظماه وهما فاقدان لبسطة الحرية، يتجرعان آلام الأسر والسجن.

حياة أبي فراس

هو أبو فراس الحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان بن حمدون الحمداني ابن عم سيف الدولة ابن حمدان وكنيته (أبو فراس) من أسماء الأسد.. ينتسب إلى العرب من جهة أبيه، ومن جهة أمه إلى الروم، ولد سنة ٩٣٣ م / ٣٢١ هـ في منبج، وقيل إنه ولد بالموصل بالعراق. تيتم وهو في الثالثة من عمره، فنشأ في حضانة أمه وعطف ابن عمه سيف الدولة.[١] ولما كان فارسا شاعرا أعجب به سيف الدولة واصطنعه لنفسه، فاصطحبه في غزواته واستخلفه في أعماله، وأجزل عليه العطاء؛ فقلده منبجًا وحران وهو ما زال في السادسة عشر من عمره [٢]، وقد وقع في الأسر مرتين، الأولى بمغارة الكحل في سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة.. والثانية أسره الروم من منبج في شوال سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة، وحملوه إلى القسطنطينية، وظل في الأسر أربع سنوات كتب فيها رومياته ـ أفضل قصائده ـ حيث بث فيها خلجاته وحزنه، ليس لكونه أسيرا بل لانتظاره أن يفتدى كأمير من سيف الدولة، ولا يمكث تلك السنوات بالأسر حتى يفتدى مع عامة المسلمين كأسير عادي [٣] وقد أنفق سيف الدولة في فداء الأسرى سنة ٣٥٥هـ ستمائة ألف دينار، وكان ذلك خاتمة عمله لأنه مات بعد ذلك بقليل. [٤] كانت نهاية أبي فراس على يد أبي المعالي ابن سيف الدولة صراعًا على السلطة في ربيع الآخر سنة ٣٥٧هـ.

شعره ومكانته الأدبية

أبو فراس شاعر مجيد اطلع على شعر الجاهليين وحِكَمِهم، قارئ للقرآن، فارس خاض المعارك وانتصر فيها، أمير تنعم في رغد العيش، ألهب خلجات نفسه الأسرُ، فجاء شعره وصورُه مرآةً لشخصيته.. كان الصاحب يقول: (بُدئ الشعر بملك، وخُتمَ بملك) يعني (امرأ القيس) و (أبا فراس) فقد جمع بين أدبي السيف والقلم في خدمة سيف الدولة ..... أما (أبو الطيب) فلم يذر معه شاعر إلا (أبو فراس) وحده ولولا مكانه من السلطان لأخفاه، وكان (الصنوبري) و(الخبزرزي) مقدمين عليه للسن، ثم سقطا عنه) [٥]

فأبو فراس فارس الشعر أمير العذوبة والجزالة، له الأَسْريات التي تنبض ألما والفخريات الفائضة عزة وكرامة، والغزليات ذات الألفاظ الرقيقة والمشاعر النبيلة التي تذكرنا بشعر عنترة، حيث يضفي على حبه ضربا من العذرية ولونا من المثالية ممزوجة بالفخر بفروسية الشاعر ... هذا هو الأمير الأسير.. فلنطلَّ معًا على حياة ابن زيدون الوزير الحبيس.

حياة ابن زيدون

هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون (المخزومي القرطبي الذي ينتهي نسبه إلى بني مخزوم القرشيين) [٦]

وزير كاتب شاعر ولد في قرطبة سنة ٣٩٤هـ - ١٠٠٣م [٧] كان أبوه قاضيا وجيهًا ثريًا، غزير العلم، ويذكر المؤرخون أنه توفي بإلبيرة، بالقرب من غرناطة، وهو متوجه إليها لتفقد بعض ضياعه، وحمل إلى قرطبة فدفن فيها [٨]، وكانت وِلادة والده سنة ٣٠٤ هـ ووفاته سنة ٤٠٥

هـ.. نشأ الشاعر في قرطبة وانكب على تحصيل العلوم وحفظ الكثير من آثار الأدباء وأخبارهم وأمثال العرب، حيث وصله والده بالعلماء والفقهاء والأدباء، قبل أن يُتَوفي والده وهو في الحادية عشرة من عمره.. ولابد أنه اطلع على بعض الآراء والكتب الفلسفية، إذ يبدو ذلك جليًا في رسالته الهزلية من ذكره بعض الأسماء الفلاسفة وبعض مصطلحاتهم.

ونخلص مما سبق إلى شيئين: الأول: سعة ثقافة ابن زيدون في العلوم الأدبية واللغوية والفلسفية.. والثاني: ذيوع صيت ابن زيدون في مجالس العلم والثقافة المنتشرة آنذاك في مدينة قرطبة (فكان من طليعة الشباب المثقف في تلك الطبقة الراقية الثرية من بيوتات قرطبة) [٩] وفي صدى تلك البيئة الزاخرة بالعلوم والآداب بزغ فجر موهبة ابن زيدون. تلك البيئة التي وصفها الدكتور أحمد هيكل بالتفوق الحضاري والضعف السياسي. [١٠]

شعره ومكانته الأدبية

ابن زيدون شاعر وناثر احتذى حذو الشعراء المشارقة في نظم قصائده، حلو اللفظ، غواص في المعاني، صادق العاطفة.. كان لاطلاعه على العلوم العقلية أثر في تأملاته التي جعلها زادًا يغترف منه في شتى أغراضه الشعرية، ووشَّى شعره بألوان من البديع، وضروب من الموسيقى تنتشي بها الآذان، كما تسعد الأعين بمباهج الطبيعة الخلابة التي ميزت الأندلس (وكان ابن زيدون يحسن ضرب الخواطر والمعاني القديمة أو الموروثة في عملة أندلسية جديدة، فيها الفن وبهجة الشعر، وما يفصح عن أصالته وشخصيته) [١١]

وشاعرنا مقلد لشعراء المشرق مبدع في ذات الوقت مما جعل النقاد يطلقون عليه (بحتري الغرب) ولعل إعجابه بالبحتري يرجع لأنه (منبجيُّ النشأة وكان شديد الصلة بوطنه) [١٢] وهو (فتى الآداب وعمدة الظرف، والشاعر البديع الوصف ... ذو الأبوة السنية بقرطبة، والوسامة والدراية، وحلاوة المنظوم، والسلطة وقوة العارضة) [١٣] وشعره لا يقل فحولة عن شعراء المعلقات في العصر الجاهلي كامرئ القيس وزهير بن أبي سلمى في جزالة الألفاظ وروعة الأخيلة كأبي تمام والمتنبي (شاعر من طبقة الفحول القدماء وطابعهم، وكان شعره لهذا جديرًا بأن يتخذ مثلًا يحتذِي به من جاء بعده من الشعراء) [١٤] فهو يكسو المعاني المشرقية ثوبًا زيدونيا أندلسيًا يلائم عصره (كان إذا نسب أنساك كُثَيِّرًا، وإذا مدح أذرى زهيرًا، وإذا فخر أناف على امرئ القيس) [١٥] .

وكان ذلك مدعاة لأن يراود الشاعر طموحه ليصل لمنصب الوزير بل يلقب بذي الوزارتين في عهد الدولة الجهورية التي تقلبت في حبها له، فتارة ترفعه منصبا وأخرى تزج به في السجن، وهذا لا ينفي ما كان بينه وبين ابن أبي الحزم بن جهور من صداقة وملازمة لفترة ليست بالوجيزة، فكانت علاقتهما:(ائتلاف الفرقدين، واتصال الأذن بالعين) [١٦] إذ كان ابن زيدون معوانًا لابن جهور في ترسيخ حكمه، وقد حفظ ابن جهور صنيعه له في مساعدته على الاستبداد بحكم قرطبة، وجعله يحتفظ بلقب " وزير " وهذا يفسر قول ابن خاقان في ابن زيدون أنه " زعيم الفئة القرطبية ونشأة الدولة الجهورية " [١٧] وقول ابن دحية إنه " زعيم الوزارة القرطبية، ونشأة دولتها "[١٨]

وفي ذلك الخضم من المنصب والثقافة والشباب رتع الوزير العاشق في مجالس الترف واللهو ناهلًا من كأس الحب.. فظهرت في حياته ولادة بنت المستكفي، تلك الفتاة المثقفة الأديبة السافرة التي كان الأدباء يقصدون مجلسها لما لها من حلاوة لسان الشواعر وجمال ربائب الملك حيث كانت بضة غضة تخلب ألباب الرجال بأدبها ولطف حديثها وما تحفظ من أشعار وأخبار حيث عبرت عن المرأة الأندلسية التي كانت أكثر حظًا في الحرية من مثيلتها في الشرق آنذاك فتنافس أصحاب الحظوة والنفوذ من كبار رجال الدولة على حضور تلك المجالس الأدبية التي كانت تعقدها في منزلها شبيهة بالصالون الأدبي في ستينيات القرن الماضي أو الندوات الشعرية في يومنا هذا، تلك الولادة ملكت فؤاد ابن زيدون وأسرت لبه مؤثرة في شعره، مضفية عليه المشاعر الصادقة (والأخبار اللامعة في حياة ابن زيدون السياسية، لا تطوف بصنمه ومعبوده ولادة بنت المستكفي التي كان ينسى كل شيء حين يجلس إليها محدثًا، وينصرف عن كل ما حوله، ولو كان سياسة تُعلي شأنه وتجعله في مصاف الأمراء والوزراء، كلها تطوف حول صنمه المعبود ولادة) [١٩]

ويبدو أن ولادة لم تكن صادقة في حبها لابن زيدون؛ فسرعان ما أوقعت الوزير ابن عبدوس في شِراك حبها (لما مرت بالوزير أبي عامر بن عبدوس وأمام داره بركة تتولد عن كثرة الأمطار، وربما استمدت بشيء مما هنالك من الأقذار، وقد نشر أبو عامر كُمَّيْه، ونظر في عاطفية، وحشر أعوانه إليه، فقالت له:

أنت الخصيب وهذه مصرُ فتدفقــا فكلاكما بحرُ [٢٠]

فصادف قولها منه قلبًا متيَّمًا، ففتحت له بابًا كان واقفًا على عتبته لسنوات لم يجد فيها فرصة للدخول.

ويظل ابن زيدون على وفائه لها فيرسل برسالة هزلية شعرية يسخر فيه من غريمه في الهوى لكنها تبقى على موقفها، فيحيك منافسو ابن زيدون وحاسدوه الدسائس ويزج به في السجن (ويدافع عن نفسه برسالة أرسلها إلى أستاذه أبي بكر بن مسلم بعد فراره من السجن الذي ظل فيه خمسمائة يوم) [٢١] ، ويستحضر ـ لتبرير هروبه من السجن ـ قصة سيدنا يوسف عليه السلام وفراره من مصر فيقول:

فررت، فإن قالوا الفرار إرابةٌ فقد فرَّ موسى حين همَّ به القِبطُ [٢٢]

ويعود بعد الفرار فيمدح آل جهور (ويوليه أبو الوليد بن جهور الوزارة، وتصيبه وعكة فيسند مهام الوزارة لابنه وتصيبه الحمى فيلقى ربه في ١٥ رجب٤٦٣هـ الموافق ١٨نيسان سنة ١٠٧١م، ويدفن بإشبيلية) [٢٣]

حفلت حياة ابن زيدون بالمفارقات والتناقضات بالثقافة واللهو، بالوصل والهجر، بالحرية والسجن.. وتلك الأخيرة هي محل البحث والدراسة لما لها من بالغ الأثر في شعره لتُعَدَّ ظاهرةً تستوجب الوقوف عليها.

مظاهر التشابه والاختلاف بين أبي فراس وابن زيدون

وسأعرض لما غلب بين الشاعرين من أوجه شبه؛ إذ لولا الشبه ما كان للجمع بينهما معنى، وكذلك ما برز من جوانب اختلاف تضفي على شعر كل منهما طابعه الشخصي الذي يميزه عن سائر الناس..

نشأ كلا الشاعرين في بيئة علم وأدب محاطة بثراء وترف؛ فأبو فراس نشأ في بلاط سيف الدولة الحمداني كأمير من العائلة الحاكمة، أما ابن زيدون فقد عاش في مجد وطَّأه له عائلة تبدأ بجده القاضي، وشعر سلب الألباب فأدناه من ذوي السلطان حتى صار وزيرًا، بل غلب عليه لقب: (ذو الوزارتين).

ولم تكن النشأة في الترف وحدها هي عامل الشبه بينهما، بل إن قسوة الأيام كذلك جمعت بينهما على بُعد المكان؛ فأبو فراس وقع في الأسر ومكث فيه أربع سنوات فاقدًا حريَّته كإنسان، وهيبته كأمير، وابن زيدون مكث في السجن خمسمائة يوم بين يأس ورجاء وظنون.

فوجئ أبو فراس بطول مدة السجن؛ إذ لم يفتدِه ابن عمه (سيف الدولة) افتداءً خاصًا كما كان يُرجَى منه، وإنما ظل فيه طوال المدة سالفة الذكر حتى تم افتداؤه مع غيره من الأسرى بعد طول عتاب واستعطاف واستجداء، وإذ لم تُجْدِ تلكم الأساليب فقد انتهى الأمر بالتعريض به.. أما ابن زيدون فلم يستطع أن يبلغ من الندّية مع ابن جهور ما بلغ سابقُه مع سيف الدولة، وإنما كان جُلُّ رسائله استعطافًا وتذكيرًا بالودّ الذي انقطع أو كاد، ولما بلغ به الأمر مبلغه كانت أكثر رسائله وضوحًا في عرض مقومات شخصيته والتي كانت يوما ما في مكانة لا يليق لها أن تدنو إلى الحضيض الذي باتت تعانيه، ولم يأتِ كل ذلك بشيء إلى أن هرب من السجن كمذنب.

وإذا كان السجن ظلاما وحسرة ــ على كلا الشاعرين ــ فإن أروع ما نظما كان من داخل السجن؛ فقد عركت الحياة كلا منهما، فصقلت شخصيتيهما وأخرجت أروع ما بداخلهما، فانتهت فترات الحبس بمرارتها، وبقيت المكتبة العربية تزخر بحلاوة ما كتبا.

وهناك شَبَهٌ آخر بين شعر الشاعرين، فكل منهما أفاض في غرضَيِ الغزل والفخر، وإن تفوق فخر أبي فراس ــ بحكم كونه أميرًا ــ على فخر ابن زيدون، وربما يُقال إن شاعرًا عربيا لم يَفُته هذان الغرضان، غير أن بروزهما لدى كلا الشاعرين مما لا تخطئه العين، ما يجعل الموازنة بينهما تجدر في هذا المقام.

الغزل

لم تخلُ قصائد الشاعرين التي نظماها أثناء محبسيهما من عاطفة رقيقة مشوبة بالحزن والحنين، وليس ذلك بغريب، فقد تميز كلاهما بألفاظه الرقيقة، وصوره الموحية، ومن ذلك قصيدة نظمها أبو فراس حينما امتنع الأمير سيف الدولة من إخراج ابن أخت الملك إلا بفداء عام وحمل الأمير أبو فراس إلى القسطنطينية وبلغه ذلك الخبر وهو في الأسر فبدأها بتلك المقدمة الغزلية:

أما لجميلٍ عندكن ثَوَابُ ... ولا لمُسيءٍ عندكن مَتابُ
لقد ضلَّ من تحوي هواهُ خريدةٌ ... وقد ذلّ مَنْ تَقضي عليهِ كِعابُ
ولكنني والحمدُ للهِ حازِمٌ ... أَعِزُّ إذا ذلَّت لهنّ رِقَابُ

ولا تملكُ الحســـــــــناءُ قلبي كلَّهُ وإن شَمِلَتها رقةُ وشـــــبابُ
وأجري ولا أُعطي الهوى فَضلَ مِقوَدي وأهفو ولا يخفى عليَّ صَوَابُ [٢٤]

البيت الأول لجميل بن معمر الشاعر العذري الملقب بجميل بثينة، لارتباطه الشديد بمحبوبته بثينة، فيبدأ بالاستعطاف، وسرعان ما نشعر بعد ذلك بالفخر يتسنى في ظلال المعاني فقد ضل من تملك الحسناء قلبه وتذله الكواعب، ليستدرك بعد ذلك بأنه بحمد الله حازم عزيز، يعز إذا ذلت الرقاب للجميلات؛ فمهما ملكن من الشباب والرقة فلن يملكن قلبه، فلا يعطي مقوده لأحد، ومهما هوى أو هفا قلبه فلن يطيش صوابه، إشارة إلى العزة والفخر وروح الفروسية، وليس عشق الخنوع.

ومن أروع مقدماته الغزلية، مقدمة قصيدته الرائية المشهورة التي نظمها يفتخر بنفسه عندما بلغه أن الروم قالت: ما أسرنا أحدًا لم نسلب سلاحه غير أبي فراس:

أرَاكَ عَصِيَّ الدمعِ، شيمتُكَ الصبرُ أمَا للهوى نهيٌ عليـكَ ولا أمرُ؟
بلى أنا مشـتاقٌ وعنـديَ لوعـةٌ ولكـنَّ مثلـي لا يُذاعُ لهُ سِـرُّ!
إذا الليلُ أضواني بسَطتُ يَدَ الهوى وأذلَلتُ دَمعًـا من خلائقِـهِ الكِبرُ
تكادُ تُضيءُ النارُ بينَ جوانحي إذا هيَ أذكَتهـا الصبابةُ والفِكْـرُ
مُعلِلَتي بالوصلِ، والموتُ دونَهُ إذا مِتُّ ظمآنـا، فلا نزَلَ القَطـرُ
حَفِظْتُ وَضَيَّعْت الموَدَّةَ بيننـــا وأحسنُ، من بعضِ الوفاءِ لكَ، العُذْرُ
وما هـذه الأيـامُ إلا صحائفٌ لأحـرُفِها، من كفِّ كاتِبها بَشْرُ
بنفسي من الغادين في الحي غادةً هَـوَايَ لهـا ذنبٌ وبَهجتُهـا عُذْرُ
تَروغ إلى الواشـين فيَّ، وإنَّ لي لأُذنًا بها، عن كلِّ واشـيةٍ وَقْـرُ
بَدَوتُ لقومي في هواكِ، وإنَّهم وإيَّاي، لولا حُبُّكَ، الماءُ والخمـرُ
فإن كان ما قال الوشاةُ ولم يكُن فقد يهـدمُ الإيمانُ ما شيَّد الكفـرُ
وَفَيتُ وفي بعض الوفاءِ مذلـةٌ لآنسـةٍ في الحيِّ شـيمُتها الغدْرُ
وقورٌ، وريعانُ الصِّبا يستفزُّها فتارَنُ، أحيانا، كما يأرَنُ المُهـرُ
تُسائلني: (من أنت؟)، وهي عليمةٌ وهَلْ بفتىً مِثلي على حالِهِ نُكْرُ؟
فقلتُ، كما شاءت وشاء لها الهوى (قَتيلكِ!) قالت: (أيُّهُمُ؟ فهُمُ كُثُرُ!)
فقلتُ لها: (لو شـئتِ لـم تتعَنتـي ولم تسألي عني، وعندكِ بي خُبْرُ!)
فقالت: (لقد أزرى بكَ الدهرُ بعدنا!) فقلتُ معـاذَ اللهِ! بل أنتِ لا الدهرُ
وما كان للأحزان ـ لولاك ـ مسلكٌ إلى القلبِ، لكن الهوى لِلبِلَى جسرُ)
كأني أُنادي، دونَ مَيثَـاءَ ظَبيـةً على شـرفٍ ظَمْيـاءَ، جَلَّلَها الذُّعْرُ
تَجفَّـلَ حينًـا، ثم تدنـو كأنمـا تُنادي طَلًا، بالوادِ، أعْجَزَهُ الحُضْرُ
فَلا تُنْكريني، يا ابنـةَ العـمِّ، إنَّهُ ليعرفُ من أَنْكَرتِهِ: البَدْو والحَضْرُ
ولا تُنكريني، إنني غيـرُ مُنْكَـرٍ إذا زَلَّتِ الأقدامُ؛ واستُنْزِلَ النَّصْرُ [٢٥]

ينوع الشاعر في أساليبه بين الاستفهام والتعجب مبديًا لواعج صدره من محبوبه الدائب الصبر مسائلا إياه: أليس للحب والعاطفة أثر في أفعاله، فيجيب بالتأكيد على حبه لكن مثله يُعجِز

الرقباء عن النفاذ إلى ما في قلبه. (يكتسب رمز المحبوبة صفة التعقيد لما يبدو فيه أحيانًا من توحيد ذات الشاعر مع ذات الجماعة التي تخلت عنه. وذلك ما نلحظه منذ مطلع القصيدة الذي يصعب معرفة ما إذا كان فيه للمحبوبة – بضمير المذكر – أو أنه نوع من خطاب الشاعر لنفسه، خاصة إذا نظرنا إلى البيت الثاني ... لكن المهم أن الاعتزاز بالنفس والحفاظ على كبريائها هو الصوت الأعلى) [٢٦] ويخيم الليل عليه فتشتعل نيران الفكر والحب وتتساقط الدموع من شخص عرف بالأنفة والكبرياء. ثم يقابل الشاعر بين شيمته من الحفاظ على المودة والوفاء، وحرص محبوبه على السلوك النقيض من الغدر، فهي تطمعه بالوصال ودائما لا تفي، ويلتمس لها العذر مع أنها تسمع للوشاة به ويصُم هو أذنه عنهم، وهو مصرٌّ على دوام العهد والود لأن حبه لها الماء والخمر.. ولعل مزاوجته بين الماء والخمر يرجع لكون الأول سر الحياة والثاني يحقق لشاربه النشوة المُبتغاة. ومن ثم فقد ظل على الوفاء لآنسة شيمتها الغدر وإن كان في ذلك مذلة فلها العذر! ويستخدم الشاعر في أحد الأبيات أسلوب الاستفهام مرتين:

تُسائلني: (من أنت؟) وهي عليمةٌ وهَلْ بفتىً مِثلي على حالِهِ نُكْرُ؟

الأول على لسان محبوبته تُبدي جهلها وهي به عليمة، والثاني على لسانه مفتخرًا بنفسه ومنكرًا فعلَ من يجهله.. ثم يعرفها بنفسه بما تحب أن تسمع (قتيلك!) متعجبا، فتبدي تعجبها وتستفهم (أيهم؟ فهم كثُرُ!)، فأبو فراس هنا يستخدم الاستفهام مرة، والتعجب مرتين، ليدلل على دلال المحبوب، الذي كلما ازداد دلالا ازداد تعلقا به.

فقلتُ، كما شاءت وشاء لها الهوى (قَتيلكِ!) قالت: (أيُّهُمُ؟ فهُمُ كُثُرُ!)

وتكتمل في الأبيات أركان القصة الشعرية، بدءًا بالشخصيات الرئيسة (الأبطال) وهما أبو فراس والمحبوبة.. الشخصيات الثانوية متمثلة في الوشاة وقومه ودورهم هو التفريق بين الحبيبين.. المكان ممثَّل في ذات الشاعر المعذبة بالأسر والمتبادلة في القصيدة بين ذات الشاعر والحي.. العقدة وهي إصراره على وفائه في حين تتنكر المحبوبة لهذا الهوى فيستخدم لغة الحوار التي تزيد من تأزمه النفسي (تسائلني – فقلت – قالت)، الحل وهو يقينه أن لا عز بعده بيدي عاشق، ولا راحة بين السلوى والهجر، وعليه التسليم لقضاء الله.

فأيقنتُ أنْ لا عِزَّ بَعدي، لعاشقٍ وأنَّ يَدي. مما عَلِقتُ بهِ صفرُ
فَعُدْتُ إلى حُكْمِ الزَّمانِ وحُكْمِها لها الذَّنبُ لا تُجزى به وليَ العذر

السرد ـ كأحد أركان القصة ـ فما كان لحزنه مسلك لولاها فالهوى جسر للهلاك، ونفسه معذبة بين جد المحبوبة وهزلها .

وما كان للأحزان، لولاك، مسلكٌ إلى القلبِ، لكن الهوى لِلبِلَى جسرُ
وَتَهْلِكُ، بين الهزلِ والجِدِّ مُهجَةٌ إذا ما عَدَاها البينُ عذَّبَها الفِكْرُ

وليس بغريب أن يستخدم أبو فراس في شعره أساليب القَصِّ؛ فقد نضجت القصة الشعرية منذ العصر الأموي، إلى العصر العباسي، وامتلأت بها كتب الأدب والنقد سواء كانت القصص المترجمة أو العربية الخالصة، وسواء ما كان منها واقعيا أو خياليا.

ويبدو أن هذه المحبوبة ما هي إلا سيف الدولة، إذ يستنكف الشاعر أن يبُثَّه أحزانه فيعود من ذلك بلا طائل، حيث استخدامه لأساليب النهي عن إنكاره (إذ لا يمكن أن تكون المحبوبة الحقيقية هي المقصودة بكل هذا الحديث، وإنما المقصود وهو الذي يرمز إليه بالمحبوبة هو سيف الدولة، وهذا هو الذي يفسر وصفه للمحبوبة بأنها ابنة العم كما يفسر إلحاحه على طلب الاعتراف به والإقرار بمزاياه) [٢٧].

فَلا تُنْكريني، يا ابنةَ العمِّ، إنَّهُ ليعرفُ من أَنْكَرتِهِ: البَذْو والحَضْرُ
ولا تُنكريني، إنني غيرُ مُنْكَرٍ إذا زَلَّتِ الأقدامُ؛ واستُنْزِلَ النَّصْرُ

فإذا كان الميل إلى الرمزية أمرًا معتادًا لدى الشعراء، فإنه بالنظر إلى أنفة شاعرنا أمر ضروري؛ إذ لا يقبل أن يريق ماء وجهه هدرًا بخاصة إذا علمنا أنه يخاطب نفسه والتي اشتق منها صورة الرفيقين على قياس (قفا نبكِ) والتي سبق بها الجاهليون.. ويرى الدكتور محمد الزين أن العنصر العاطفي يسيطر على القصيدة [٢٨]، وأراها عاطفة الفارس الذي لا يذله هوى.

وبغض النظر عن العاطفة التي تتجلى في ظاهر الأبيات، فإني أستشعر من ورائها فارسًا يأبى أن يبوح بما هو عليه من حالات الضعف فيختفي وراء ستار المرأة التي لا يُلام بحبها أعتى الرجال، ويبثُّ من خلالها آلامه التي لا يشكوها بشكل مباشر حتى ولو كانت الشكاية لابن عمه الأمير أقرب الناس إليه، ولكنه أثناء عرضها ينثر بعض العبارات التي لا يمكن أن تتجاوزه، فيوحي أن ما يعانيه كان بسببه (وما كان للأحزان، لولاك، مسلكٌ) موضحًا أن امره ليس بالهين ولا هو بالمنكر (ولا تُنكريني، إنني غيرُ مُنْكَرٍ) كما يوحي أن التخلي عنه خسارة للجميع ؛ إذ لا خير لأحد بعده إن لم ينل مأربه فيقول : (إذا مِتُّ ظمآنا، فلا نزَلَ القَطرُ) ولا أرى ــ من خلال مدارستي لأخلاق الفرسان ــ أن قوله في هذا البيت دعاء على أحد بقدر ما هو تهديد وتحذير لمن لا يعرف قدره أن يتركه نهبًا للضياع.

ومما يبدو من كبرياء الفارس أيضًا توجيه الخطاب بصيغة المؤنث وكأن الشاعر أراد أن يزيل لدى القارئ كل الشكوك في أنه يوجه خطابه لابن عمه أو أنه يستجدي أي رجل لاستنقاذه.

أما ابن زيدون فكان لتجربته العاطفية مع ولادة بنت المستكفي أثر في شعره الغزلي، فإن كان غزل أبي فراس يحمل الفخر في ثناياه فإن ابن زيدون يستفيض في وصف محبوبته أكثر من عاطفته ومن ذلك ما أرسل به من سجنه إلى أبي الحزم بن جهور مادحًا، في قصيدة بدأها بأبيات غزلية يقول فيها:

ما جالَ بَعْدَكِ لحظي في سَنا القمرِ إلَّا ذَكَّرْتُكِ ذِكـرَ العيْـنِ بالأَثَرِ[٢٩]
ولا استطلتُ ذَمَاءَ الليلِ من أَسَفٍ إلَّا عَلى ليلةٍ سَـرَّتْ معَ القِصَرِ
نَاهيـكَ من سَـهَرٍ بَـرْحٍ، تَأَلَّفَهُ شَوْقٌ إلى ما انقضى من ذلك السَّمَرِ
فليتَ ذاكَ السـوادَ الجَـوْنَ مُتَّصِلٌ لو اسـتعارَ سَـوَادَ القلـبِ والبصَرِ
أما الضـنى، فَجَنَتْـهُ لحظـةٌ عَنَنٌ كأنها والردى جـاءا علـى قَدَرِ
فَهِمتُ مَعْنَى الهوى من وحْي طَرفِكَ لي إنَّ الحِوارَ لمفهومٌ منَ الحَـوَرِ

والصدرُ مُـذْ وَرَدتْ رِفْهَــا نَواحِيَهُ ... تومُ القلائدِ لم تجنــح إلى صَدَرِ
حُسْـنٌ أفَانيـن، لم تستوفِ أعيُننـا ... غاياتــه بأفانيــن مـنَ النظــرِ
واهًــا لثغرك ثغرًا باتَ يكلَؤهُ ... غَيرانُ، تَسري عَوَاليهِ إلى الثَّغَرِ
يقظانُ لم يكتحل غمضًا، مُراقبةً ... لرابطِ الجأشِ، مِقدَامٍ على الغِرَرِ
لا لَهْوُ أيامِـهِ الخـالي بمُرتَجَـعٍ ... ولا نعيــمُ لياليــهِ بِمُنتَظَـــــرِ
إذ لا التحـيةُ إيمـاءٌ مُخَالسـةً ... ولا الزيارةُ إلمامٌ على خَطَرِ
مُنًى، كأن لم يكُن إلَّا تَذَكُّرُها ... إنَّ الغرامَ لمُعتادٌ معَ الذكرِ [٣٠]

يقوم الشاعر بعملية ارتداد لسابق عهده، فيعقد موازنة بين ما كان في زمن الوصل وبين ما آل إليه من قطيعة، ويؤكد بالنفي والاستثناء ـ مرتين ـ وفاءه على الهوى فلم تقع عيناه على القمر إلا مذكِّرًا بها، ولا استطال ليله إلا أسفا على ما مضى من وصل قصير ولم يعد، إضافة إلى معاناة السهر.. ويصور حزنه بالسواد الذي غشي القلب والبصر وهو أشد حلاكة من سواد الليل، وكان على قدر باعتراض العذاب والهلاك حياتَه؛ فقد تعلم الهوى من طرف محبوبه.. وتمر لحظة يائسة بالشاعر فلا عودة للهو أو النعيم بعد ذلك فلم تعد التحية مخالسة بالإشارة، ولا حتى الزيارة غبا، ثم يصف الصدر والثغر بما يليق بهما مبينًا فقدَه لكل ذلك، ولم يبقَ من ذكراها إلا التذكر؛ إذ المحب المستهام دائم التذكر لمحبوبه.

ومن هذه المقدمة يتبدّى لنا أثر السجن في نفس الشاعر فاستحال كل ما حوله مثيرًا لأحزانه؛ فطول الليل وشدة سواده، ومعاناة السهر إنْ هي إلا انعكاسات لما يحسه الشاعر في غيابات السجون.

والهارب من السجن أسيرُ خوفِ الرجوع إليه فلنقرأ الأبيات التي نظمها بعد فراره من السجن، حيث أقام متواريا بقرطبة.. فحتى وإن قال هذه الأبيات خارج القضبان فإن هروبه جعله لا يستشعر معاني الحرية الكاملة، وما يُدريه أن تطاله أعين الرقباء ويد السلطان فيعود إلى السجن مُؤاخَذًا بالذنب القديم، وبخطيئة الهروب معًا؟! فيقول مخاطبا ولادة:

شَحَطنا وما بالدارِ نأْيٌ ولا شَحْطُ ... وشَطَّ بِمَن نهوى المَزَارُ وما شَطُّوا
أَأَحْبَابَنَــا ! أَلْوَتْ بحادثِ عَهدِنا ... حَوَادِثُ، لا عقدٌ عليها ولا شَرْطُ
لَعَمْرُكُمُ إنَّ الزمانَ، الذي قَضَى ... بِشَتِّ جميعِ الشَّملِ منَّا، لمُشْتَطُّ
وأمَّا الكَرَى مُذ لم أَزُرْكُم، فهاجرٌ ... زيارتُهُ غِبٌّ، وإلمَامُهُ فَرْطُ
وما شوقُ مقتولِ الجوانحِ بالصَدَى ... إلى نطفةٍ زرقاءَ، أضْمرَها وَقْط
بأبرحَ من شوقي إليكُم، ودون ما ... أُديرُ المُنى عنهُ القتادةُ والخَرْطُ
كأنَّ فؤادي، يومَ أهوى مُوَدِّعَا ... هَوَى خافِقًا منهُ بحيثُ هَوَى القُرطُ
إذا ما كتابُ الوجدِ أشكلَ سطرُهُ ... فَمِن زَفْرَتي شَكْلٌ ومن عَبْرَتي نقطُ [٣١]

يشكو ابن زيدون بُعده عن محبوبته ولادة؛ إذ منذ فراقها هجره النوم؛ فبات لا يزوره إلا قليلا، ويصور اشتياقه لها باشتياق الصادي إلى قطرات الماء في جوف الصخر. ذلك الشوق الذي

هو أحر من شوك القتاد، ويصور خفقان قلبه عند الوداع بالقرط يهوى من الأذن، فاختلاط الزفرات أسطر ودموعه نقط، وهي صورة تعبر عن ابن زيدون الأديب المثقف الكاتب.

ويبدو الشبه واضحا بين هذه المقدمة وسابقتها، فيتكرر فيهما بُعد الحبيب واستحالة رؤياه مما يزيد الليل سوادًا، والنوم مجافاةً، والمحبَّ ظمأً، وهي معانٍ يستشعرها كل من نأى عنه محبوبه، غير أن السجن زادها إيلامًا، وجعلها أبطأ زوالا.

وأشهر قصيدة لابن زيدون على الإطلاق تلك التي نظمها بعد فراره من السجن، تلك القصيدة النونية التي سأل فيها ولادة الوصال متحسرا على ما مضى، وناقمًا مما آل إليه الحبيبان من فراق، حتى ليكاد كل بيت يكون ميدانًا للموازنة بين الحالين. [٣٢]

العتاب والاستعطاف

والقارئ لديواني الشاعرين يضع يديه على كثير من أوجه التشابه في الألفاظ والمعاني، مما دعت إليه وحدة الحالة؛ فكلاهما مسلوب الحرية، قد قلبت له الأيام ظهر المجنِّ، يأمل كل يوم أن ينفكَّ قيده ــ لا سيما إن كان هناك مَن يستطيع القيام بفكِّ ذلك القيد بفديةٍ كما هو الشأن في حالة أبي فراس، أو بشفاعة كحالة ابن زيدون ــ ليعود الأسير مُحرَّرًا، ويعود المتهم بريئًا..

يقول أبو فراس متودِّدًا إلى سيف الدولة:

أسيفَ العِدا وقَريعَ العربْ علامَ الجَفَاءُ وفيم الغضبْ!؟ [٣٣]

فقد وجَّه إليه النداء باستخدام أداة نداء للقريب ــ كناية عن قربه من نفسه وإن باعد بينهما الأسر ــ ولم يدعُه باسمه بل دعاه بصفتين تحملان معاني القوة والسيادة معًا؛ فهو (سيف العدا) أي: سيف مسلول على الأعداء، كما أنه (قريع العرب) أي سيدهم.. ثم أردف بعتاب رقيق: (علامَ الجَفَاءُ وفيم الغضبْ؟) علَّه يستميل قلبه..

وفي صورة مقاربة يقول ابن زيدون:

إيهِ أبــا الحــزمِ اهتَبِل غِــرةً أَلسِــنَةُ الشُــكرِ عليهــا فِصــاح

فكان النداء الذي سبقه بكلمة (إيهِ) وهي اسْمُ فِعْلٍ لِلأمْرِ بِمَعْنَى زِدْ، أو امْضِ فِي الحَدِيثِ، أو تكون للإسْكاتِ والكفّ، بمعنى حَسْبُك[٣٤]، ولعل ذلك هو المراد، فينصحه بالكف عن الكلام ثم يحثّه على اغتنام فرصة يكون الشكر والثناء من لسان فصيح جزاءها.

ويدعوه في مقام آخر بكنيته مباشرة مبينًا ما له من فضل عليه، فيقول:

عليكَ أبا بكــرٍ بكــرتُ بِهِمَّــــةٍ لها الخطر العالي، وإن نالها حَطُّ

ويزداد التودّد فيدعو أبو فراس سيف الدولة بدعوى الولاية عليه ــ كابن عمٍّ أكبر ــ بل دعوى السيادة قائلا:

فلا تَعْدِلَنَّ ــ فداكَ ابنُ عَمِّــ ك لا بل غلامك ــ عمّا يَجِبْ [٣٥]
وأنصِفْ فتاكَ فإنصافُهُ مِنْ الفضلِ والشّرفِ المُكْتَسَبْ

وفي مثل هذا المعنى نجد ابن زيدون يدعو أبا الحزم بأبٍ بعد أبيه قائلا:

أبي، بعدما هِيلَ الترابُ على أبي ورهطيَ فذًّا، حين لم يبقَ لي رهطُ

ونجد في بيتي أبي فراس تدرُّجًا في وصف نفسه يبدأ بابن العم إلى الغلام أو الفتى، تدرجًا مبعثه كِبر الأمل شيئًا فشيئًا، في حين يذهب ابن زيدون مباشرةً إلى علاقة الأب بابنه لبيان فضل أبي الحزم عليه منذ نشأته، وليسدَّ عليه سبل التخلّي عنه؛ إذ لا خلاص له بدونه!

ولا يعيب أحدهما أن يُظهر الودِّ للمخاطَب (سيف الدولة أو ابن جهور) لما لهما من فضل، فيقول أبو فراس مبينًا فضل سيف الدولة عليه في إنزاله منزلة حصينة وفي دفع الخطوب عنه وإنزاله أعلى الرتب:

وما زلتَ تَسْـبِقُني بالجَميلِ وتُنزِلُني بالجَنَابِ الخَصِبْ
وتدفَعُ عن حَوزتي الخطوبَ وتكشِفُ عن ناظِرَي الكُرب
فَفِيـمَ يُعَـرِّضنِـي بالحُمُــو لِ مَوْلًى به نِلْتُ أعْلَى الرتب؟ [٣٦]

ويبين ابن زيدون فضل أبي الحزم عليه؛ فهو بدونه كالطائر الذي لا يستطيع الطيران.. فيقول:

لا طـارَ بِي حظ إلى غايةٍ إن لم أكُن مِنكَ مَريشَ الجَنَاح [٣٧]

وما كان له أن تثمر قريحته ما يُبقي ذكره، فيقول في موضع آخر:

ولولاك لم تثقب زنادُ قريحتي فينتهبُ الظلماءَ من نورها سَقْطُ [٣٨]

وبعد هذا التنازل فلا عليهما إن أظهرا التصريح بالحاجة الملحّة، والتوجه بالدعاء لكلا الرجلين؛ فعلى حين يقول ابن زيدون داعيًا:

وقاكَ ما تخشى من الدهر مَنْ تَعِبْتُ في تأمينه، واستراح [٣٩]

نجد أبا فراس يقول ــ أيضًا ــ في دعائه لسيف الدولة:

فداكَ ابنُ عَمِّـك، لا بل غلامك

ويستعطفه ــ داعيًا له ــ بأنه ولو كان مذنبًا فمن حقه عليه قبول العذر لما له عنده من مكانة سابقة، فالعتاب لا يكون إلا بين الإخوان:

فَديتُك، ما الغـدرُ من شـيمتي قديمًا، ولا العجزُ من مذهبي
وَهَبني؛ كما تَدعي؛ مُذنبا! أما تقبلُ العُذرَ من مذنب؟
وأولـى الـرجـالِ بعـتب أخٌ يَكـرُ العتـابِ علـى مُعـتِبِ [٤٠]

من خلال الأبيات السابقة يتجلى لنا ما فيه الشاعران من حرج، فلو كان هذا العتاب من شخصين عاديين لبدا ما بهما من ضيق والتماس الفرج عند من يستطيع التفريج عنهما، فما بالنا إن سمعناه من أميرين؟! هذا الحرج جعل كلا الشاعرين يلتمس أقرب الطرق وأكثرها تنازلا علّهما ينالان ما يبغيان، فأطلق أبو فراس على نفسه أمام ابن عمه لقبيْ (فتى، وغلام) ولا عليه إن كان أبو فراس جبلا شامخًا يحتمي به الشاعر وقومه، بل وسائر العرب.. في حين دعا ابن زيدون صديقه ابن جهور بدعوى الأب.. ومهما كان من علاقة بين الشاعرين ومخاطبيْهما فلا

أجد تفسيرًا لهذا التنازل في لغة الخطاب سوى ما يشعر به كل منهما من ضيق خلف القضبان لا سبيل إلى السعة بعده إلا مَن قاما بمدحهما.

وربما يلجأ الشاعر في العتاب والاستعطاف إلى طرف ثالث يُشهده على حاله؛ فهذا أبو فراس وقد بثّ شكواه في رسالة بعث بها من محبسه إلى أمه، يختمها بأمله في تخليص سيف الدولة إياه قائلا:

فيا أُمَّتَا، لا تَعدمي الصبرَ، إنه ... إلى الخيرِ والنُّجحِ القريبِ رسولُ
ويا أُمَّتَا، صبرًا! فكلُّ مُلمَّةٍ ... تجـلَّى عَلَى عِلّاتها وتـزولُ!
إذا ما وقاك اللهُ أمرًا تَخــافُهُ ... فمـا لكَ ممـا تتقيــهِ مُقيـلُ
وما دام سيف الدولة القَرمُ باقيًا ... فظِلُّك فَيَّـاحُ الجَنَـابِ، ظليلُ
عَسَاهُ، وقد أحسنتُ ظني بفضلهِ ... يجودُ بتخليصي لكم ويُنيلُ! [٤١]

أما ابن زيدون، فبعد أن فاض به الكيل نحا في استعطافه أبا الحزم بن جهور منحى مختلفا عن أبي فراس، إذ تعلو نبرة الاستعطاف والحديث عن الآخر لا عن الذات، فيُشهد الناس على حاله التي لا تخفى على ذي عينين، ويجعل منهم سائلا عن حاله ومسؤولا، فالبعض يسأل البعض الآخر وواقع حاله يجيب! فرغم كونه وزيرًا إلا أنه لم يكن هناك ما يربط بينه وبين الحاكم من نسب أو دم، كما أنه وإن اشترك في صد الفتن لم يكن فارسا أو قائدا شهد الحروب وأخاف العدو كأبي فراس، إذِ الفارسُ نفسه أبية لا تميل للخضوع أو التذلل.. فلنعرض لقصيدة بعث بها ابن زيدون لأبي الحزم يشكو حاله في السجن:

مَنْ يسألِ الناس عن حالي فشاهدُها ... محضُ العتابِ الذي يُغني عن الخَبَرِ
لم تَطوِ بُردَ شبابي كَبْرَةٌ، وأرى ... بَرْقُ المَشيبُ اعتلى في عارضِ الشَّعْرِ
قبلَ الثلاثينَ، إذ عهدُ الصِّبا كَثَبُ ... وللشــبيبة غصنٌ غيـرُ مُهتصَـرِ
ها إنها لوعةٌ، في الصدر، قادحةٌ ... نارَ الأسى، ومشيبي طائرُ الشّــررِ
لا يُهنئُ الشامتَ، المُرتاحَ خاطرُهُ ... أنِّي مُعَنّى الأماني، ضائعُ الخَطَرِ [٤٢]

وبالقصيدة مقدمة غزلية لم أوردها، بعدها يُشرِك الناس في السؤال عن حاله وكأنه يجعلهم شاهدًا بينه وبين ابن جهور، فلا يكتفي بالشكوى أمام نفسه، بل يُشهِد الناس عليها.. ويشعر القارئ بإلحاحه على تصوير آثار السجن فيه؛ فسوء حاله شاهد للعيان، وبرق الشيب اشتعل بعارضه وهو في سن الشباب، ونار الأسى صارت قادحة في صدره، فشمت الشامتون، مما دفعه للدعاء عليهم.

ويتشبث ابن زيدون بالأمل، فلا يتناقص لديه، ولا يتسلل إليه اليأس؛ فالمنخرق قد يرقع، والجراح تداوى، وعزمه هذا يخف العدا، فيلح على طلب الشفاعة.. فيقول:

لم يَثْنِنِي ــ عن أملِ ــ ما جَرَى ... قَذ يُرقَعُ الخَرْقُ وتُؤسى الجراحْ [٤٣]

وشبيه بذلك أمل أبي فراس في سيف الدولة ــ وهو به أدرى، فيجزم بأن مجرد الشك لم يتسلل إلى نفسه تجاهه رغم الخطوب فيقول:

وما شكَّكتني فيك الخطوبُ ولا غيَّرتني فيك النُّوَبْ

على أننا ـ مع علمنا بميل كلا الشاعرين إلى الفخر بنفسه ـ لا نكاد نلمح فخرًا بيّنًا؛ إذ المقام مقام استعطاف لا فخر، ولما غلب طبعُ كل منهما تطبُّعَه فقد جاء الفخر على حذر؛ فنجد أبا فراس ينسب كل مفخرة به إلى سيف الدولة قائلا:

ومِنْ أينَ يُنكِرُني الأبعدونَ أمِنْ نقصِ جَدٍّ أمن نقصِ أبْ!؟
ألســتُ وإيّاكَ مِن أُســرةٍ وبيني وبينك قُربُ النّســبْ!
ودارٍ تَكبّــرُ إلا عليــكَ وتَرغَبُ إلَّاك عَمَّــن رَغِبْ [٤٤]

فالأصل والنسب واحد، ومهما تكبَّر الشاعر فلن يتكبر على سيف الدولة ولن يرغب عنه وإن كانت عادته أن يرغب عمن رغب عنه.

أما ابن زيدون فإنه يفخر ببضاعته التي لا يملك غيرها ـ وهي الشعر، ومردُّ هذه المفخرة إلى ابن جهور كان السبب المباشر الذي جعل صيت الشاعر يخترق الآفاق وينير الظلماء.. فيقول:

ولولاك لم تثقب زنادُ قريحتي فينتهبُ الظلماءَ من نورها سَقْطُ

وكما قلت فهو فخر على حذر يحفظ ماء الوجه لقائله، ولا يمنع تعاطف صاحبه معه؛ فأبو فراس حينما يفخر يظهر لنا نسبه، وفروسيته، وبسالته في الحروب على حين يفخر ابن زيدون بأدبه، وملكاته الشعرية.. وسيظهر ذلك في الحديث عن الفخر عند الشاعرين، على أن سوق هذه الأبيات هنا مما يتماشى مع مقام الاستعطاف الذي لجأ إليه الشاعران تحت قسوة القيود وضيق القضبان.

الشفاعة

والشفاعة أمرٌ مشروع بنصِّ القرآن في الدنيا والآخرة.. يقول تعالى: " مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا " [٤٥] وغالبا ما يقبلها المشفوع عنده لصدورها عن شخص ليس طرفًا في القضية محل الخلاف.

وعندما يعجز الاستعطاف عن بلوغ المراد قد يلجأ مَن ضاق به الحال إلى شفيع يقيل عثرته ويحمل نقيصته، وغالبا ما يكون الشفيع طرفًا ثالثًا يرضى المشفوع عنده بشفاعته لما له من سابق ودٍّ بينهما أو عظيم مكانة.. فنجد أبا فراس لما ضاق به الحال يستشفع لدى سيف الدولة بابنيه، داعيًا إياهما بالسيدين، ومذكِّرًا إياهما بأن مجده مجدٌ لهما، ومطالبًا ـ صراحةً ـ بالتوسط لدى أبيهما الأمير.. قائلا:

يا ســيديَّ أراكمــا لا تذكــران أخاكمــا
أوجدتمــا بـدلًا بــه يبني ســماء علاكما؟
أوجدتمــا بـدلًا بــه يفري نحور عِداكما؟
مَن ذا يُعابُ بما لقيــ ـتُ من الورى إلاكما؟
لا تقعُــدا لي بعدها وســلا الأميـرَ أباكما
وخذا فدايَ جُعِلتُ من ريبِ المنونِ فداكما [٤٦]

كما يستشفع لدى سيف الدولة بالود القديم ووحدة النسب والأصل، مستدركًا أن ذلك إن لم يُجدِ نفعًا فليجمعهما الإسلام:

فإن لم يكن ودٌّ قديم عهدتُه ... ولا نسبٌ بين الرجال قرابُ
فأحوطُ للإسلام ألا يُضيعَني ... ولي عنه فيه حَوطَةٌ ومنابُ [٤٧]

وإن لم يجد الشاعر شفيعًا فإنه يستشفع بعجزه معترفًا به طامعًا في جناب صاحب الحق.. يقول ابن زيدون:

هَبْني جَهِلتُ فكان العِلْق سيِّئةٌ ... لا عُذرَ منها سوى أنِّي مِنَ البَشرِ
لكَ الشفاعةُ، لا تُثْني أَعِنَّتُها ... دونَ القبولِ، بمقبولٍ من العُذرِ [٤٨]

يتضح من الأبيات السابقة أن الشاعرين اضطُرَّا اضطرارًا إلى إدخال أطراف أخرى؛ علَّها تكون سببًا في الخلاص مما ينالهما من أسْر أو سجن، أما أبو فراس فيجعل أمه شفيعًا لما يستشعر من مكانتها عند سيف الدولة، كما يستشفع بابني الأمير، وهو في الحالين ينتظر نهضة سيف الدولة لنجدته.. وأما ابن زيدون فلجأ إلى الشفيع الناجع الذي ينتظر ألا يخذله وهو ابن جهور.

الشكوى

من المنطقي أن تكثر الشكوى لدى كلا الشاعرين بالموازنة بين ما كان عليه حال كل منهما وما آل إليه، على أن الشكوى غالبًا ما تكون عامة، أي من بعض الأشخاص أو الأماكن أو الأزمان أو غيرها.. فذلكم أبو فراس يشكو قومه وقد جحدوا فضله وأوضعوا قدره، وأساؤوا إليه في الغيب والمشهد. ووُدُّوا ألا يروه، رغم مكانته فيهم وحُسن فِعاله لهم.. فيقول:

إلى الله أشكو عصبةً من عشيرتي ... يسيئون لي في القول غيبًا ومشهدًا
وإن حاربوا كنت المجنَّ أمامهم ... وإن ضارَبوا كنتُ المهنَّدَ واليدا
وإن نابَ خطبٌ أو ألمَّت مُلِمَّةٌ ... جعلتُ لهم نفسي ــ وما ملكت ــ فِدا
يودُّون أن لا يُبصِروني سفاهةً ... ولو غبتُ عن أمرٍ تركتهمُ سُدى
فَعالي لهم ــ لو أنصفوا في جمالها ... وحظِّي لنفسي اليوم، وهو لهم غدا
فلا تعِدوني نعمةً؛ فمتى غدتْ ... فأهلي بها أولي وإن أصبحوا عِدا
وإني بخيرٍ أن لقيتُ بهم فتى ... كريمًا مُطاعًا في العشيرة سيدًا [٤٩]

وقد ختم شكواه منهم بمدح ــ من طرف خفيٍّ ــ للأمير الذي يصفه بأنه سيد مطاع. وقريب من ذلك شكوى ابن زيدون بعدم معرفة الناس قدره ــ وهو مَن هو، فيقول:

فديتُك كم ألقى الفواغر من عِدا ... قِراهم لنيران الفساد ثقابُ
وقد تُسمِعُ الليثَ الجِحاشُ نهيقَها ... وتُعلي إلى البدر النباحَ كلابُ
إذا راق حُسنُ الروض أو فاح طيبُه ... فما ضرَّه أن طَنَّ فيه ذبابُ
فمن لي بسلطانٍ مبينٍ عليهم ... إذا لجَّ بالخَصم الألدِّ شِغابُ؟ [٥٠]

ومن ذكائه نجد أنه مع شكواه من الناس جميعًا إلا أنه يدعو الممدوح إلى تجديد الثقة فيه، فلا يضعه في الكفة المقابلة منه مباشرة، وإنما يشكو غفلته عنه وحظه لديه، إيحاءً بأنه نجدة الملهوف دائمًا، وإن كان من عيب فالمعيب هو حظ الشاعر نفسه.. فيقول:

فثق بهزبر الشعر واصفح عن الورى ... فإنهـمُ ـ إلا الأقـلُّ ـ ذيـابُ
وردتُ معينَ الطبع إذ زيدَ دونـه ... أناس، لهم في حَجرَتيه لُوَابُ
ونجَّـدني علـمٌ تـوالت فنونـه ... كما يتوالى في النظام سِخابُ [٥١]

على أنه غالبا ما يمزج الشكوى بالفخر، وكأنه يتحاشى أن يُرى ضعيفًا، وهذا ـ أيضًا ـ يدل على ذكائه؛ فلا هو بالخاضع الذليل، ولا هو بالذي يضيِّع فرصة الحصول على العون.. وغالبًا ما يكون محلّ فخره هو تفوقه في الشعر..

وبالنظر إلى شكوى كلا الشاعرين نجد أن أبا فراس شكا قومه ـ بأعينهم ـ فهم مَن قابلوا حُسن فعاله بسوء، ثم يعود فيذكر أنه لن ينفصل عنهم مهما قصد إلى ذلك القاصدون؛ إذ هم في النهاية أهله، ويكفيه أن يقيل عثرتَهم ويَجُبَّ سيئاتهم أميرٌ سيد مطاع.. أما ابن زيدون فقد جاءت شكواه من جحود الناس دون تعيين، ولعله يقصد بعض الناس الذين كانوا يستفيدون منه، أو البطانة القريبة من الأمير.

ونلاحظ حرص أبي فراس على قومه؛ فرغم أنهم يودُّون ألا يبصرونه إلا أنه يعدهم بأن يجعل مستقبله لهم لأنه بخير ما دامت السيادة فيهم، ولقاء ذلك نجد ابن زيدون لم يَرقُب فيمن يشكوهم إلًّا ولا ذمة، فلا يعنيه إن جحدوا فضله؛ فلا الليث ينفعل لنهيق الجحاش، ولا البدر يتأثر بنباح الكلاب.. ولكنه يخاطب الممدوح ـ مباشرة ـ بأن يكون يقظًا للذئاب المحيطة به، وأن يجدِّد فيه الثقة لما طُبع عليه من حلاوة اللسان وجودة البيان، حتى إن الشعر لينساب منه كحبَّات العقد المنظوم، فيكون بذلك لسانَه الناطق وبيانَه المُعبِّر.

المدح

المدح من أغراض الشعر العربي، على أنه رغم شهرته من أكذب الأغراض؛ إذ غالبا ما يسعى الشاعر من خلاله إلى الحصول على منفعة قد تكون مالًا أو جاهًا أو غير ذلك، غير أن المدح في حالتنا هذه لا يرجو المادح من خلاله إلا كسر قيود الأسر ونقض جدران السجن ـ ليس إلا ـ كما أن الممدوح ـ هنا ـ محدَّد الاسم والوصف [٥٢] ، وهو وحده بيده الحل في نظر كلا الشاعرين.

يقول أبو فراس مادحًا سيف الدولة:

أسـيفَ العدا وقَريـعَ العـربْ ... علامَ الجَفَاءُ وفيم الغضـبْ؟!
وأنت الكريمُ، وأنت الحليـمُ ... وأنتَ العطـوفُ، وأنت الحَـدِبْ
وما زلـتَ تَسْـبِقُني بالجَميـلِ ... وتُنـزِلُني بالجَنَـابِ الخَصـبْ
وتدفَعُ عن حَوزتي الخطـوبَ ... وتكشِفُ عـن ناظِـرَي الكُـرب
وإنـكَ للجبـلِ المُشْـمَخِـ ... ـرُّ لي بل لقومِـكَ، بلْ للعربِ
عُـلًـى تُستَفَـادُ، وعَافٍ يُفـادُ ... وعِزٌّ يُشـادُ، ونُعْمَـى تُرَبْ [٥٣]

بدت شخصية أبي فراس جلية في تلك الأبيات من حيث شعوره بكونه أميرًا قريبا لسيف الدولة ؛ فبعد أن بدأ بأسلوب نداء للقريب (أسيف العدا) دلالة على قرب سيف الدولة من نفسه، ومدحه بما هو أهل له من عهده بالكرم والحلم والعطف والحنان وسبْق المعروف، يذكر أنه جبل القوم والعرب الشامخ، ربيب العز والنعمة والذهب وألوان الحلي المختلفة من مظاهر الترف التي كثرت في العصر العباسي الذي عاش فيه الشاعر ؛ وحتى بعد أن تأخر جواب سيف الدولة فإن الشاعر لم يواجهه بخطيئة التخلي عنه، وهو ما يستنكف قوله، وإنما أبقى بينهما شعرة معاوية، وهي القول بعلمه الأكيد بالأمير ؛ إذ ليس هو بالمتخلي عن أحبابه ولو نأى بهم المقام .

ولا يكتفي بهذا الوصف فحسب، بل يمدحه جاعلًا إياه كالجبل الأشم له وللقوم، ولسائر العرب، فيقول:

وإنـكَ للجبــلِ المُشْـمَـخِـ ـرُّ لي بل لقومِـكَ، بلْ للعربِ

ووصفه بالجبل المشمخر مما يتناسب مع وعورة البيئة العربية، وهو ما لم نرَ مثله لدى ابن زيدون في مدحه لابن جهور إذ يقول:

ذو الشيمة الرَّسلِ إن هِيجتْ حفيظتـه ... والجانبِ السهلِ والمستعتَبِ اليَسَرِ [٥٤]
مَنْ فيه للمُجْتَلِي والمُبتلِي، نَسَقًا ... جمالُ مَرْأَى، عليه سَرْوُ مُخْتَبَرِ
مُذَلَّلٌ للمساعي حُكْمَها شَطَطًا ... عليه، وهوَ العزيزُ النفسِ والنَّفَرِ
وزيرُ سَلْمٍ كفاهُ يُمْنُ طائرِهِ ... شُوْمَ الحروبِ ورأيٌ مُحْصَدُ المِرَرِ
أغنت قريحتهُ مُعنى تجاربه ... ونبت اللمحةُ العَجلَى عن الفِكَرِ
كم اشترى بكَرَى عينيهِ من سَهَرٍ، ... هدوءُ عينِ الهُدى في ذلك السهرِ
في حضْرةٍ غاب صَرْفُ الدهرِ خشْيتهُ ... عنها ونام القطا فيها، فلم يَثُرِ
مُمَتَّعٌ بالربيع الطلقِ نازلُها ... يُلهيه عن طِيبِ آصالٍ نَدَى بُكَرِ
ما إن يزالُ يَبُثُّ النبتَ في جَلَدٍ ... مُذْ ساسها، ويُفيضُ الماءَ من حَجَرِ [٥٥]

فهو ذو الجانب السهل، وزير سلم، تغنيه رجاحة رأيه عن خوض الحروب، ممتع بالربيع الطلق، يبث النبت في البلاد مذ ساسها ويخرج الماء من صخورها.. وهي صفات تعكس رجاحة عقله التي يحتاج إليها الشاعر لإنقاذه مما هو فيه، يدعمه في مطلبه ما وصفه به من لين الجانب وبشاشة الوجه وصحبة الخير.. كما أن في الندى والنبت والماء والربيع تجسيدًا للبيئة الأندلسية.. أما سيف الدولة فكان يصف ابن عمه بالجسارة، وذلك لأنه أسير عند أعدائه، فلا يكفيه إخراجه مما هو فيه برجحان الرأي فحسب، ولكن لا بد من مساندة القوة لهذا الرجحان حتى يَرهَبَه الأعداء من بعيد، إضافة إلى أن وصف (الجبل المشمخر) يتناسب مع طبيعة كل من أبي فراس (الفارس) وسيف الدولة (الأمير)، ولا يعني ذلك صلابة أبي فراس في شعره لقاءَ رخاوة ابن زيدون، ولكنها لفتة آثرتُ الإشارة إليها.

ومما سبق يبدو أثر الأسر واضحًا على قول أبي فراس؛ فالخلاص منه يحتاج إلى جبل مشمخر يعيد كرامة العرب، كما يبدو أثر السجن في قول ابن زيدون الذي يرى أن سجنه بلا سبب، وأن شفاعةً مِن راجح العقل كابن جهور كفيلة بخلاصه.

وتبريرًا للمدح يقر كلا الشاعرين بفضل ممدوحه عليه في بلوغه مرتبة عالية، وكأنهما يعللان سبب المبالغة في المدح، فما مدح أحدهما إلا انعكاسًا لفخر بذاته ساعد عليه الممدوح، فيقول أبو فراس:

فَفِيــمَ يُعَـرِّضـنِـي بالحُمُــو ... لِ مَوْلًى به نِلْتُ أعْلَى الرُّتبْ؟
وكانَ عتيـــدًا لَدَيَّ الجَوَابُ ... ولَكِـنْ لهيبتــهِ لـم أُجِـبْ

كما يقول ابن زيدون في الاعتراف بفضل الممدوح:

ولـولاك لم تثقب زنادُ قريحتـــي ... فينتهبُ الظلماءَ من نــورها سَقْطُ

وهنا نجد فخر ابن زيدون موجزًا ومحدودًا بمهارته في الشعر في حين نجد فخر أبي فراس مطلقًا بوصفه (أعلى الرتب)، وقد جاء إطنابه بمعنى جديد وهو قدرته على الرد الذي منعته منه هيبة الأمير.

الدعاء

إذا تحدثنا عن المدح فلا نعدم مدحًا مشوبًا بالدعاء، ولعل الدعاء أصدق من المدح؛ إذ المدح يقتضي المواجهة بجانب ظهور الخضوع ـ طوعًا أو كرهًا ـ والاحتياج إلى الممدوح، أما الدعاء فقد يكون بظهر الغيب، وفيه يستعين الداعي بقوة عليا يفتقر الممدوح إلى عونها، ولا يسع الممدوح إظهار الاستغناء عنها مهما كانت قدرته على الاستغناء عن الآخرين، كما أنه يحمل حبًّا ضمنيا من الداعي للمدعو له، لاسيما إن دعا الشاعر أن يكون هو نفسه فداء للممدوح، ومن ذلك دعوة أبي فراس أن يكون فداءً لسيف الدولة قائلا:

فَديتُك، ما الغدرُ من شيمتي ... قديمًا، ولا العجزُ من مذهبي [٥٦]

ويطالبه بالإنصاف والإسراع إلى افتدائه من الأسر، داعيًا له بتقديم نفسه فداءً له.. فيقول:

فلا تَعْدِلَنَّ – فداكَ ابنُ عَمِّـ ... ـك لا بل غلامك – عمّا يَجِبْ
وأنصِفْ فتاكَ فإنصـــافُهُ ... مِنْ الفضلِ والشّرفِ المُكْتَسَبْ [٥٧]

وعندما يشكو ابن زيدون إلى ابن جهور قسوة السجون وتخلّي الجميع عنه فلم يعد أحد يسأل عنه فتضاف إلى ظلمتها نار تكوي فؤاده، فيتوجه إلى ابن جهور داعيًا له، وموضحًا أن بيديه تحويل نار السجن عليه بردًا وسلاما.. فيقول:

نارُ بَغْيٍ سَرَى إلى جنّةِ الأمنِ ... لَظَــاها، فأصبحت كالصريمِ
بأبي أنتَ، إنْ تشأْ، تَكُ بَرْدًا ... وســـلامًا، كنارِ إبراهيـــمِ [٥٨]

كما يدعو له أن يكون فداءه كلُّ الناس الذين يبيت في تأمينهم إذ يهنأون بالراحة والأمن.. فيقول:

وقاكَ ما تخشى من الدهر مَنْ ... تَعِبْتَ في تأمينه، واستراح [٥٩]

وبالنظر إلى دعاء كلا الشاعرين يتضح لنا سمة كل منهما، والتي تلوح لنا فيما يقول؛ أما أبو فراس فمن صفاته الأنفة حتى وإن كان يدعو للممدوح، فيذكره دائمًا بقرابة النسب ووحدة الأصل وتشابه المنشأ، فحينما يدعو له يقول: (فداك ابن عمك) كما لم يفُته الفخر، فبعد الدعاء بقوله (فديتك) ينفي عن نفسه الغدر الذي يجافي قِيَمه وأخلاقه.. وأما ابن زيدون فهمه الأكبر الفكاك من القيود فينسب إلى ابن جهور القدرة على تحويل النار الحامية إلى برد وسلام، مذكرًا إياه بكثرة من يتعب في تأمينهم، ولعل في ذلك إشارة من طرف خفي إلى نفسه، عساه أن يكون واحدًا ممن يشملهم رعايته.

ولم يكن الدعاء للممدوح بالفداء فحسب، وإنما يكون أحيانا كسائر الدعاء من طول البقاء وعدم حمل الهم، كقول أبي فراس:

أخي لا يُذِقني الله فقدانَ مثله! وأين له مثلٌ؟ وأين المقاربُ؟
ألا ليتني حُمِّلتُ همِّي وهمَّه، وأن أخي ناءٍ عن الهمِّ عازبُ [٦٠]

ودعاء بدوام الرؤيا والقرب كقوله:

فلا يحرمنِّي الله رؤياكَ؛ إنها نهايـــةُ آمالي وغايــة مقصــدي
ولا يحرمنِّــي الله قُربَكَ؛ إنه مرادي من الدنيا وحظي وسُؤددي [٦١]

أو دعاء بدوام النعمة وعدم زوالها، أو بالنعيم المقيم في الآخرة. ومن ذلك قول ابن زيدون:

والبَسْ من النِّعمةِ الخضراء أيكتها ظِلًّا حَرامًـا علـى الآفـاتِ والغِيَـرِ
نعيمُ جنةِ دنيا، إنْ هي انصرمتْ نَعِمْتَ بالخلدِ في الجناتِ والنَّهَرِ [٦٢]

إلا أن مما يُعاب عليه ما وقع فيه من تناقض بين البيتين؛ فالنعمة الخضراء في البيت الأول حرام على آفات الدهر وتقلباته، ثم في البيت الثاني يهيّئ نفس الممدوح لتقبُّل ما قد ينتظره من فوات النعمة له أو فواته لها، مبشرًا إياه بالعوض في الآخرة.

ولا يفوت الشاعرين بما لديهما من أحاسيس مرهفةٍ الدعاءُ للمحبوب، كقول أبي فراس داعيًا لمحبوبه بعدم الإبعاد قائلا:

إن سلمى، لا يُبعد الله سلمى تركت مقلتي بغير سُباتِ [٦٣]

وقول ابن زيدون داعيًا بالسقيا لعهد المحبوب:

ليُسْقَ عهدُكُمُ عهدُ السرور فما كُنتُمْ لأرواحِنا إلا رياحينا [٦٤]

وكثيرة هي الأبيات التي يُذكَر فيها المحبوب بالخير، ويضيق المقام عن ذكرها، ولكنَ لي هنا ملحظًا، وهو أن أبا فراس سمّى محبوبته (سلمى)، ولا يعنينا إن كان ذلك اسمها الحقيقي أم لا، في حين لم يُسَمِّ ابن زيدون، ولعل مردَّ ذلك إلى شهرة محبوبته، أو إلى السمو بها عن التصريح باسمها خوفًا من عواقب ذلك.

على أن هذا الحب وتساقي الهوى غالبًا لا يدوم؛ فغالبًا ما يكون الكاشحون مع الحبيبين ثالث ثلاثة، يذهبون للتفريق بينهما كل مذهب، فإن عجزوا عن الوقيعة دعوا على الحبيبين بتكدير كل صافٍ، يساعدهم في ذلك تأمين الدهر على دعائهم، فيقول في ذلك ابن زيدون:

غِيظَ العِدا من تساقينا الهوى فدعوا بأن نَغَصَّ فقال الدهرُ آمينا

وقريب من ذلك تحالف دهر أبي فراس مع أقرانه ممن يحسدونه، ولم يكن التحالف بينهما بالدعاء والتأمين فحسب، وإنما بظهور كليهما له على خط مجابهة واحد.. فيقول:

إن لم تكن طالت سنيَّ فإن لي رأي الكهولِ ونجدةَ الشبَّانِ
قَمِنٌ بما ساء الأعادي موقفي والدهرُ يبرزُ لي مع الأقرانِ [٦٥]

مما جعله يوجِّه دعاءه على ذلك الدهر المعاند قائلا:

لا رعى الله يا خليليَ دهرًا فرَّقتنا صروفُه تفريقا [٦٦]

فالدعاء سلاح نافذ عند البعض، به تتآلف القلوب، فلا نجد مدعُوًّا له يرفض دعاء الداعي أو يعقِّب عليه، لذا لا نكاد نسمع إلا صوت الداعي فقط، وكأن المدعو له راضٍ عما سمع.. وبالدعاء تنقضي مصالح المستضعفين؛ فقد تحنُّ القلوب غدًا ــ وهي القاسية اليوم.

وقد يكون الدعاء لمجرد التنفيس فلا ينتظر صاحبه الاستجابة بقدر ما يُخرج به مكنونات نفسه، كما في بيت أبي فراس الأخير.

ولعل الملاحظ في دعاء الشاعرين ظهور شخصية كل منهما، فعلى الرغم من أن الدعاء قد لا يسمعه سامع ــ من الناس ــ سواهما، إلا أن ابن زيدون الذي يستسلم لتأمين الدهر في دعاء العدا عليه استشعارًا منه بتكالب الجميع ضده وسجنه ظلمًا، يقابله هجوم أبي فراس على الدهر داعيًا عليه بألا يرعاه الله، وكأنه يجعل من الدهر خصمًا واضحًا، ولكنه لا يملك ــ من وراء القضبان ــ إلا الدعاء.

الفخر

الفخر من أبرز أغراض الشعر العربي نظرًا للنزعة القبلية التي كانت موجودة لديهم منذ العصر الجاهلي، ومع أن الفخر من سمات النفس الإنسانية إلا أن الإسلام عمل على إخماد هذه النزعة المقيتة التي تفرِّق ولا تجمِّع، ثم جاءت الصراعات الطائفية والسياسية فأحيتها فيما بعد، فتغلغلت ــ ولا تزال ــ في ثنايا أبيات الشعراء، فيفخر كل منهم بما يملك، بل لعل كثيرين باتوا يفخرون بما ليس فيهم سعيًا لكسب مجابهة أدبية، اعتمادًا على أن هذا الكسب ربما أغنى القارئ عن تتبُّع تاريخه وتاريخ قومه..

ويفخر كلا الشاعريْن ــ غالبًا ــ بما أُتيح له من مقومات، وما جعلني أجزم بصدقهما ثبات الدافع والمحرِّك لهذا الفخر، وهو عند أبي فراس وابن زيدون براعتهما وتفوقهما الأدبي الذي طار بصيتيهما فاخترق الخافقين، بينما يتميز أبو فراس بكونه فارسًا مغوارًا من بيت إمارة وسلطان.. فلا تكاد تقرأ صفحة من ديوانيهما إلا وقعت على الفخر بنفس الدافع، وسأورد ـ لضيق المقام ـ ما يُشير قليله إلى كثيره.

ومن أروع ما نظم أبو فراس وهو في الأسر لما تأخرت كتب سيف الدولة عنه قصيدة أرسلها إلى سيف الدولة يعاتبه، مضمِّنًا إياها بعض أبيات الفخر فيأخذ من اعترافه بقدر سيف الدولة منطلقًا إلى الفخر بنفسه، فنجده في عدة أبيات يطرح تساؤلات استفهامية تعجبية تشير لجانبٍ هام من سماته، فهل انتقاصه والتنكر له من نقص جد أم من نقص أب؟ وهي تهمة لا يمكن أن يجهر بها أحدٌ؛ إذ هو وسيف الدولة يتصلان بنفس النسب، وأي انتقاص له هو في الواقع انتقاص للأمير ذاته! وذلك التنكر بمثابة نكبة لأبي فراس تزيد من بلاء الأسر.. إذن.. فلمَ التقاعس عن افتدائه – وهو الذي نال به أعلى الرتب – وهو الباقي على وفائه.. فيقول:

فَفِيـمَ يُعَرِّضـنِـي بالحُـمُـــو ... لِ مَوْلًى به نِلْتُ أعْلَى الرُّتبْ؟
فلا تنســبن إليّ الخمــولَ ... أقمــتُ عليــكَ فلــم أغتــربْ
وأصبحتُ منكَ فَفَضْلٌ يكونُ ... وإنْ كان نَقْصٌ فأنت السببْ
وأَسكَنُ ما كنتُ في ضجرتي ... وأَحلمُ ما كنتُ عندَ الغضــبْ
وإن خراســان إن أنكَرَتْ ... عُلايَ فقــد عَرفَتْــها (حَلَبْ)
ومِنْ أينَ يُنكِرُني الأبعدونَ ... أمِنْ نقصِ جَدٍّ أمن نقصِ أبْ!؟
ألســتُ وإيّــاكَ مِن أُسرةٍ ... وبيني وبينك قُــربُ النّسبْ!
ودارٍ تَكبّــرُ إلا عليــــكَ ... وتَرغَبُ إلّاك عَمَّـن رَغِــبْ
فلا تَعْدِلَنَّ – فداكَ ابنُ عَمِّـ ... ـك لا بل غلامك – عمّا يَجِــبْ
وأنصِــفْ فتــاكَ فإنصافُهُ ... مِنْ الفضلِ والشّرفِ المُكْتَسَبْ [٦٧]

بدت شخصية أبي فراس جلية في تلك الأبيات من حيث شعوره بكونه أميرًا قريبا لسيف الدولة؛ وتبلغ نبرة الاعتزاز بالنفس ذروتها فيقوم – بدوره – بتوجيه أصابع الاتهام إلى الأمير ذاته بأنه هو مصدر النقص والعيب الذي ربما يكون قد بدا عليه، فيصرّح بقوله: (وإنْ كان نَقْصٌ فأنت السببْ) وإكمالا للثقة يبين أن هذا النقص محل شك، يظهر ذلك من خلال تعبيره بأداة الشرط (إن) التي تفيد الشك! ثم تتذبذب النغمة بين الفخر والاستعطاف - كي لا يفقد عونه - فهو غلامه الذي يطلب إنصافه، والحبيب والقريب إلى أن بدت تلك الجفوة.

كما يفخر بأنه شهد المعارك وصار شعره أشبه بالملاحم (ووقعت بين العرب والروم حروب عرض لها أبو تمام والمتنبي وأبو فراس الحمداني وكثير من شعراء سيف الدولة ... وكان من هذا كله صفحات وافرة في وصف الحرب، لو جمعت لكانت ملحمة كبيرة تفوق ما كان للأمم القديمة في وصف حروبها كاليونان والهند والفرس)[٦٨] وإلى مثل ذلك يشير أبو فراس؛ حيث يوضح أن افتداءهم إياه شرف لقومه لما له من قوة في الدفع عنهم باللسان وباليد، فيقول:

فإن تفتـدوني تفتـدوا لعُلاكمُ ... فتى غير مردود اللسان أو اليدِ
يُطاعنُ عن أحسابكم بلسانه ... ويضرب عنكم بالحسام المهنَّدِ [٦٩]

أما ابن زيدون فإنه يفخر بنفسه التي تشبه الشمس والقمر في علوِّهما، والسيف في حدّته حتى وإن كان موضوعًا في غمده.. فلا تثريب على القدر إن أغفل أبو الحزم قدره، فما يتعرض له حريٌّ بمثله أن يقع فيه؛ إذ لا يحدث الكسوف إلا للشمس والقمر، وكم يُودَع السيف في غمده!

ولا تطالُ الآفات ما سفَل، فمهما هبت الريح لا أثر لها في الضئيل من عشب الأرض مشيرا إلى أن هذه الكبوة ليست إلا لمكانته، باستفهامين استنكاريين، يصفان حالا، ويعكسان فخرًا، ويزول العجب عندئذ من طيلة مُكثه بالسجن.. فيقول:

لا يُهنــئُ الشــامتَ، المُرتــاحَ خاطــرُهُ ... أنِّي مُعَنّى الأماني، ضائعُ الخَطَــرِ
هل الريــاحُ بنجــم الأرضِ عاصفــةٌ؟ ... أم الكسوفُ لغيــرِ الشمــسِ والقمــرِ؟
إن طالَ في السجنِ إيداعي فلا عجبُ! ... قد يُودَعُ الجفنَ حدُّ الصارمِ الذكرِ
وإن يُئَبِّــطْ، أبا الحــزمِ الرِّضى، قــدَرُ ... عن كشفِ ضُري فلا عَتْبُ على القدرَ [٧٠]

ويعجب من جفاء المحيطين به ـ وبخاصة أبو الحزم ـ في وقت صارت شهرته تملأ الآفاق، ولا أدري هل تعجُّبه من تعمد اختيار وقت الجفاء أم من سوء اختياره إياهم.. فيقول:

أحينَ رفَّ غلى الأفاقِ، من أدبي، ... غَــرْسٌ، له من جَنــاهُ يانعُ الثمــرِ
وســيلةً سببًا إلا تكـــن نَسَبًا ... فهوَ الودادُ صَفَا من غيرِ ما كَدَرِ
وبائــنٍ مــن ثنــاءٍ حُسنُه مَثَلُ ... وشْيُ المحاسنِ منهُ مُعْلَــمُ الطُّرَرِ
يُستودَعُ الصُّحفَ لا يخفى نوافحُه ... إلا خَفَــاءَ نسيمِ المسكِ في الصُّرَرِ [٧١]

والأبيات السابقة تعكس غرض الفخر عند كلا الشاعرين؛ فأبو فراس يفخر بأصله، وينفي عن نفسه أي نقيصة قد تلحق به؛ فهو وسيف الدولة يشتركان في الأب والجد والنشأة فلا مطعن ولا مذمة إذن، وإن بدا لغيره ما يريب فالممدوح عنده يصير مُدانًا ـ من طرف غير خفيٍّ ـ لما له من يدٍ قصَّرت عن افتدائه وهمة تقاعست عن نجدته كما يفخر بفروسيته التي تعرفها خراسان وإن أنكرتها حلب فلا ضير.. ولكنه رغم غضبه وثورته لا يفقد وقاره؛ فأشد ساعات سكونه هي الأوقات التي تستوجب الضجر، وأشد ساعات حلمه عندما يُتَوَقَّع غضبه، مما يجعله يُبقي على أسباب الودِّ بينه وبين الأمير.

أما ابن زيدون فإنه منذ البداية ينفي علاقة النسبية بينه وبين ابن جهور ـ موضع مدحه في أكثر أبياته ـ فيجعل مفاخره تكمن في أشعاره التي كانت سببًا لبلوغ الدرجات العليا، وفي الأبيات السابقة التي أوردتها نراه يمزج بين شعره وبين الطبيعة، فكلاهما غرس يانعٌ جناه واضحٌ حسنُه، ولا تخفى نوافحه إلا كما يخفى عطر المسك داخل القوارير.. والأبيات بذلك تعكس تأثره بالطبيعة وبالبيئة المحيطة.

ومن الفخر لدى الشاعرين فخر بعدم تأثير الأسر أو السجن، ومن ذلك قول أبي فراس:

وما عَضَّ مِنِّي هذا الإسارُ ... ولكِن خَلَصتُ خُلُوصَ الذَّهبْ [٧٢]

وقول ابن زيدون:

مِئون من الأيام خمسٌ قضيتهــا ... أســيرًا، وإن لم يبدُ شدٌّ ولا قمطُ
أتتْ بي كما مِيصَ الإناءُ من الأذى ... وأذهَبَ ما بالثوب من درَنٍ مَسطُ [٧٣]

فكلا الشاعرين ـ على غير اتفاق سابق بينهما ـ ينفي تأثير الإسار على يديه، غير أني أستشعر تفوق أبي فراس في تصويره لأمرين: **الأول** لما أتى به من إيجاز في تصويره، فقد جعل

هذه التجربة تنقيه من الشوائب كما يُنَقى الذهب، في حين حرص ابن زيدون على الجانب الظاهر (من الشد أو القمط) وفخره بعدم ظهور ذلك عليه للعيان.. **والثاني**: لنبرة التحدي التي تشع من بين كلماته، وهذان الأمران يفتقدهما بيتا ابن زيدون الذي يبدو وكأنه يجترُّ آلامه، إضافة إلى تصوير أثر التجربة عليه بأنه غُسِلَ كما يُنقَع الثوب أو يُغسَل.

وفي موضع آخر يوضح أن ما أصابه من السجن أمر نفسي من جراح واشتياق وغربة.. فيقول:

جراحٌ وأســرٌ واشتياقٌ، وغربةٌ ... أُحَمَّلُ إنـــي ـ بعدها ـ لحمولُ!
وما نـــالَ مني الأســرُ تَريـــانه ... ولكنني دامـي الجـراح، عليلُ

الشيب المبكر

درج الشعراء على ذم الشيب في غالب أشعارهم؛ فهو إيذان باستحالة القوة ضعفًا والقدرة عجزا والانطلاق قيدًا، وبانصراف الشباب بملذاته ومغامراته، وإذا حلَّ الشيب مبكرا كان أبغض إلى النفس نظرًا إلى أن دافعًا آخر ـ غير الزمن ـ كان له الأثر العميق على من خطّ الشيب بعارضيه ليبدو الشخص ـ في أعين الناس ـ على غير ما يجب له، وهو ما يبدو من حال الشاعرين؛ إذ يُرجع كل منهما ما أصابه من هَمٍّ أو شيب إلى الأسر أو السجن.

فيبين أبو فراس أنه لم يشِب بفعل الزمن ولكن من فعال الأحبة ـ وإن أبدى ترحيبًا بذلك الشيب ـ فيقول:

رأيتُ الشيب لاح فقلتُ: أهلا ... وودّعتُ الغـواية والشـبابا
وما إن شِبتُ من كبَر، ولكن ... رأيت من الأحبة ما أشابا [٧٤]

وعندما يُبدِّل الشيب حاله فيصرف عنه الغواني ـ وكم يبتعدن عن الفتى إن لاح البياض بذؤابته ـ نجد أبا فراس لا يحفل به معللا نفسه أنه مشغول بعدة القتال من السيوف والقنا والخيول.. فيقول:

فما للغواني إذ علا الشيب مفرقي ... يُعلِّلـن قلبي بالأمـاني الكـواذبِ
أراهـن يبدين الصـدود عن الفتى ... إذا ما بدا الشيبُ الذي في الذوائبِ
فما لي إلا البيض؛ والبيض والقنا ... وجُردٌ كِرام مُحصَراتُ الجوانبِ [٧٥]

فهو يرحب بالشيب، ولا يظهر جزعه بمغادرة الشباب وإن صرف عنه الحسناوات، لأن الفارس مشغول بالسيف والقنا والخيل، ولا يحفل بما يعرض له من أحداث.

أما ابن زيدون فإنه يقابل الشيب المبكر بوجه عبوس يُذهله عن كل شيء حوله إلا الدعاء على الشامتين، وكأن الشيب مدعاةٌ للذم، ولنعرض لأبيات من قصيدة بعث بها لأبي الحزم يشكو حاله في السجن:

مَنْ يسألِ الناس عن حالي فشاهدُها ... محضُ العتابِ الذي يُغني عن الخَبَرِ
لم تَطوِ بُردَ شـبابي كَبْرَةٌ، وأرى ... بَرْقُ المَشيبُ اعتلى في عارضِ الشَّعْرِ
قبلَ الثلاثينَ، إذ عهدُ الصِّبا كَثَبُ ... وللشـبيبة غصـنٌ غيـرُ مُهتصَـرُ

ها إنها لوعةٌ، في الصدر، قادحةٌ	نارَ الأسـى، ومشـيبي طائرُ الشّـررِ
لا يُهنـئُ الشامتَ، المُرتاحَ خاطرُهُ	أنِّي مُعَنّى الأماني، ضائعُ الخَطَرِ [٧٦]

والقارئ للأبيات السابقة يشعر بإلحاح ابن زيدون على تصوير آثار السجن فيه فسوء حاله شاهد للعيان، وبرق الشيب اعتلى عارضه وهو في سن الشباب، ونار الأسى صارت قادحة في صدره، فشمت الشامتون، فيدعو عليهم ألا يهنأوا بضياع منزلته.

وخلاصة القول إن كلا الشاعرين يتفقان في غزو الشيب إياهما غزوًا مبكرا كما يغزو الرعيان أرضًا بلا حماة، وما عجَّل به إلا السجن وتنكُّر المقربين لهما.. ولكن الاختلاف في نظرة كل شاعر له، فأبو فراس يلاقيه ملاقاة الفرسان فلا يُبدي له اهتمامًا وإن حرمه الشيب إقبال الغواني عليه، ولكن ما حاجته إليهن وقد انشغل بالسيف والقنا؟؟ أما عُبوس ابن زيدون في مقابلة الشيب فمردُّ ذلك إلى أنه جعل حياته على صلة وثيقة بالحسان وفي مقدمتهن ولادة التي كانت بقربها منه شمسًا تُبدي بجلاء ما تُسقِط عليه شعاعها، وكانت ببُعدها دِفئًا رحل عنه فأصابه زمهرير الهجر.

المفارقة

ورد في معجم المعاني، مُفَارَقَةٌ (مصدر فَارَقَ) وتعني التناقض، الجمع: مفارقات، لاحَظَ مُفارَقَةً في سُلوكِه: تَنَاقُضُهُ فِيمَا يَقُولُ ويُمَارِس، ومُفَارَقَةٌ وَاضِحَةٌ: تَنَاقُضٌ ظَاهِرِيٌّ [٧٧].. ولا تقتصر المفارقة على التناقض الظاهري بقدر ما تعطي صورة في الذهن؛ فقد تكون في اللغة والموقف والشعور.

والمفارقات سمة تكثر في ديواني الشاعرين، ولا أعني بها ــ هنا ــ تناقض أقوال الشاعرين، ولكن تدل على تغيُّر الحال عند كل منهما؛ فلم يدُمْ تعامل كل منهما معاملةً تليق بقدره، وإن لم ينسيا الأيام الخالية وما بها من نعيم، مما دفعهم للمقارنة بين الحالين.. فيقول أبو فراس ذاكرًا غزواته بخرشنة وقد مر بها أسيرًا:

إن زرتُ خَرْشَنَةَ أسـيرًا	فلَكَمْ أَحَطْتُ بها مُغيـــرَا!
ولقـد رأيتُ النـارَ تَنْـ	ـتَهِبُ المنـازلَ والقصـورا
إن طـال ليلـي في ذُرا	كَ فقد نعمـتُ به قصـيرا
ولئن لقيتُ الحزن فيـ	ـك فقد لقيتُ بك السرورا
ولئـن رُميتُ بحـادثٍ	فـلأُلفيَـنَّ له صـبورا
مَن كـان مثلـيَ لم يَبِت	إلا أميـرًا أو أسـيرا
ليسـت تحـلُّ سـراتُنا	إلا الصـدور أو القبـورا [٧٨]

فالمفارقة ــ هنا ــ واضحة أيما وضوح؛ فهو في خرشنة أمير أو أسير، وليله طويل بالعناء أو قصير بالهناء، وهو لم يبت إلا أميرًا أو أسيرًا، وليس له إلا مكان واحد وهو الصدارة أو غيابات القبور.. وما هذه المفارقة إلا من خلال ما آل إليه الشاعر؛ فلم يعد يملك زمام أمره، بل صارت الأقدار تتحكم فيه تحكُّمًا مباشرًا، فتحوَّل من أمير يتقلّب في النعماء إلى أسير يعاني الليل الطويل وقسوة القيود.

وقال مخاطبًا سيف الدولة وقد حدثت بينهما نبوةٌ أشعرته بأنه قد نسيه وجافاه، فراح يوازن في علاقاتهما بين الأمس واليوم قائلا:

وكنتُ الحبيبَ، وكنتُ القريبَ ... لياليَ أدعــوكَ من عن كَثَبْ
فلَمّــا بَعُـدْتَ بَـدَتْ جفـوةٌ ... ولاحَ من الأمــرِ ما لا أُحبْ

ومن أوضح الأمثلة على المفارقات في شعر ابن زيدون ما ورد في نونيته المشهورة؛ إذ وضح بجلاء حاله قبل السجن من نعيم وقرب وهوى وما آل إليه في السجن وبعده من جحيم ومجافاة، تلك القصيدة التي سأل فيها ولادة الوصال متحسرا على ما مضى، وناقمًا مما آل إليه الحبيبان من فراق، حتى ليكاد كل بيت يكون ميدانًا للموازنة بين الحالين.. فيقول:

أضحى التنائي بديلًا من تدانينـا ... ونابَ عن طيبِ لُقيانـا تجافينا
مَنْ مُبْلِـغُ المُلبسـينا بانتـزاحِــهمُ ... حُزنًا مع الدهرِ لا يبلى ويُبلينا
أنَّ الزمانَ الذي مـا زالَ يُضحِكنــا ... أُنسًــا بقربِهــمُ قـد عـادَ يُبكينا
غِيظَ العِدا من تساقينا الهوى فدعوا ... بأن نَغَـصَّ فقـال الدهـرُ آمينـا
فانحلَّ ما كانَ معقـودًا بأنفسـنا ... وانبَتَّ ما كان موصولًا بأيدينا
وقد نكونُ وما يُخشــى تفرُّقُنـا ... فاليومَ نحن وما يُرجَى تلاقينا
حـالتْ لفقدِكُـمُ أيامُنـا فَغَـدتْ ... سُودًا وكانت بكم بيضًا لياليـنا [٧٩]

يصور الشاعر حال الحبيبين اللذيْن حال البعد بينهما، فاستحال الأنس والضحك وحشةً وبكاء، فانحل الهوى المعقود وانقطع الوصل بفعل المحبوب، ولم يكن الفراق يخطر ببالهما والآن لا يرجى تلاقيهما، ويقارن بين الأيام التي غدت سودا بعد أن كانت الليالي بيضا.

يبدو واضحًا أثر السجن على ابن زيدون؛ إذ قلب حياته رأسًا على عقب، وتقلّب بين أمرين لا وسط بينهما، ولكنه ـ بخلاف أبي فراس الذي تناول جانب الفروسية ومواجهة الصعاب وحده ـ نراه يهتم بوصف حاله مع المحبوبة، وتربُّص الدهر والحسَّاد بهما، فاختار في مواجهتهما حرف النون ـ نا الفاعلين أو المتكلمين ـ والذي يدل على مشاركة المحبوبة إياه في الحالين، وما يحمله هذا الحرف ـ في هذا المقام ـ من معاني الأنين والأشجان خاصة بعد اقترانه بألف الإطلاق.

ومن خلال أبيات الشاعرين نلاحظ اتساق كل منهما مع نفسه؛ فأبرز مفارقات أبي فراس كانت من خلال موقف يعكس فروسيته ومواجهته وحده ما تعرض له، وأبرز مفارقات ابن زيدون كانت من خلال تساقيه الهوى وغصّته به بعد دعاء العدا وتأمين الدهر، وليس من الإنصاف الحكم بالسبق لأحدهما على الآخر.

الطبيعة

إن أردت تصنيف الشعراء حسب أغراضهم الشعرية التي نبغوا فيها وجدت أن شعراء الأندلس من أكثر الشعراء تناولًا للطبيعة، حيث إن الطبيعة باتت (فاتنة تتصدى لعيون الشعراء، فتشحذ قرائحهم وتغري شاعريتهم، وتلهمهم لوحات شعرية هي من خير ما خطت أقلام الأندلسيين)[٨٠] ساعدهم في ذلك ما تتسم به بيئتهم من ثراء نباتي انعكس على غزارة وتنوُّع في

الحيوان ما زال واقع الناس اليوم شاهدًا عليه، فإن لفتت هذه البيئة أنظار العامة فأَدْعَى أن تلفت أنظار الشعراء بما وُهِبوا من حسٍّ مرهف وبصيرة نافذة، وإن كانت البيئة واحدة ــ لدى العديد من الشعراء الذين جمعهم الزمان أو المكان ــ فإن استعداد كل شاعر يميزه عن غيره من الشعراء . يقول أبو فراس في وصف بقعة تجمع بين الماء والخصب :

وبقعــة من أحســن البقاعِ   يُبشِّــر الرائد فيهـا الراعي
بالخصب والمرتعِ والوساعِ   كأن ما يســتر وجه القاعِ
من ســائر الألوان والأنواعِ   ما نســج الروم لذي الكلاعِ
من صنعة الخالق لا الصناعِ   والمــاء ينحــطُّ من التلاعِ
كما تســلّ البيض للقراعِ   وغــرّد الحمــام للســماعِ
ورقص الغصنُ على الإيقاعِ [٨١]

فأهم ما يميز البقعة التي خصَّها بالوصف هو كونها مرتعًا خصبا يسرُّ الرعيان الذين يتلقّون البُشرى بالبِشر لما بها من سعة وخصب، وكأنها من نسج الروم الذي تتعدد ألوانه فتتزين به النساء، والماء يهبط من قمّتها بسرعة السيف الذي يخرج من غمده متأهِّبًا للضرب.

وشاعر الطبيعة ــ ابن زيدون ــ يجعل لمفردات الطبيعة التي رتع فيها بقرطبة قبل سجنه ركنا في شعره حتى وإن ورد في ثنايا قصائد المدح أو العتاب أو الشكوى أو غيرها من الأغراض ــ فضلا عن وصفه إياها مباشرة؛ فهو يزاوج بين عناصر الطبيعة وصفات الممدوح ــ عن قصد وفي براعة فائقة ــ ومن ذلك قوله:

مُمتــع بالربيع الطلــق نازلهــا   يُلهيه عن طِيبِ آصالِ ندى بُكَرِ
ما إن يزال يبثُّ النبتّ في جَلَدً   مُذْ ساسَها، ويُفيضُ الماء من حَجَرِ
يا بهجةَ الدهرِ حَيًّا وهو، إن فنيت   حياتُه، زينـــةُ الآثـــارِ والســـيَرِ
إن السيادة بالإغضاءِ، لابسةٌ   بهاءَهـــا، وبهاءُ الحُسن في الخَفَرِ
والبَسْ من النِّعمةِ الخضراء أيكتها   ظِلًّا حَرامًا على الآفاتِ والغِيَرِ
نعيمُ جنةِ دنيا، إنْ هـي انصرمتْ   نَعِمْتَ بالخلدِ في الجناتِ والنَّهَرِ [٨٢]

فممدوحه هو الربيع الذي يبثّ النبت في البلاد ويفجر ينابيع الماء، وهو بهجة الدهر، وزينة الآثار الذي يعتمد على شيمه الكريمة، كما يتمتع ببهاء السيادة الذي يكمن في الستر والتغاضي عن الأخطاء، ويلبس ثياب النعمة التي تستعصي على الفناء في الدنيا والآخرة.

وقد أوردت هذه المقطوعة، وحذفت من أبياتها ما كان خالصًا للمدح أو العتاب أو غيره من الأغراض، واكتفيت بإيراد ما تلبّس منها بشعر الطبيعة، وقد تجلَّت شاعرية ابن زيدون في وصف الممدوح ووصف الربيع معًا، وكأن أحدهما نظر في المرآة فرأى الآخر..

وإن كان شغف ابن زيدون بالطبيعة وافتتانه بها وتعبيره عن فتنتها مما لا يخفى على القارئ العجِل فضلا عن المتأني، إلا أن الجانب الذي بدا لي ــ أيضًا ــ أنه أراق ماء وجهه تحت قدمي ابن جهور، فلم يُبقِ معنى من معاني التزلُّف إلا وصفه به، حيث سَدَّ أمام نفسه كل دروب الفخر التي يمكن أن تكون مفتوحة أمام نُظرائه من سحرَة الكلمات!!

وبالنظر في المقطوعتين يتبين لي عدة نقاط منها:

- تتجلى شخصية كلا الشاعرين في وصفه للماء؛ فماء أبي فراس ينحطُّ من علٍ كالسيف المسلول للضرب، أما ماء ابن زيدون يسيل من بين يدي الممدوح – ابن جهور.
- ساق ابن زيدون قصيدته في سياق المدح الذي اضطرته إليه ظروف السجن – وما بعده من هروب – فلا يكاد القارئ يميز بين الممدوح وبين الربيع، أما أبو فراس فقد ساق مقطوعته سوقًا مجردًا عن الأغراض الأخرى.
- جاء جمال الطبيعة عند أبي فراس لما يسوقه من بشارة تسر الرعاة، نظرًا لما تحفل به من خصب، أي أن الجمال يحفُّه المنافع الجمة، أما مقطوعة ابن زيدون فقد جاء جمال الربيع فيها مجردًا، وممدوحه يبثُّ النبت ويفجر الماء فحسب دون بحث عن طاعم منها أو شارب.
- يغلب على معجم أبي فراس مفردات الفخر والفروسية، أما ابن زيدون فقد بث عبارات المدح والاستعطاف في أبياته، وينهي قصيدته بأن خصَّه بالدعاء بأن ينال نعيم الجنات بعد أن ينعم بالدنيا.
- كان إيقاع أبي فراس صاخبًا وكأنه فوجئ بجمال هذا المكان الذي يسرع فيه البشير لتبشير الراعي، أما ابن زيدون فقد جاء إيقاعه هادئًا وكأنه يحاول إقناع الممدوح باستحقاقه الشفاعة، وكلاهما أهل لها – الشافع والمشفوع له – فالشافع جدير بها بما له من أيادٍ بيضاء على البلاد كلها (مذ ساسها)، والمشفوع له جدير بجني ثمارها بما له من فضل (حينَ رفَّ على الآفاقِ من أدبه) وكان لمكانة ابن زيدون الشعرية دور في إيصاله إلى الوزارة ؛ فمهمة الوزارة (تتصل – قبل أي شيء آخر – بالكتابة، فإذا كان الكاتب مثل ابن زيدون وابن عمار وابن عبدون على مقدرة شعرية ممتازة صح له أن يبلغ مرتبة الوزارة ويكون شعره ميزة تعينه على ذلك، لكنه لو انفرد بالشعر دون الكتابة لما استطاع أن يبلغ تلك الوظيفة) [٨٣]

المفردات الدينية بين أبي فراس وابن زيدون

سلك أبو فراس وابن زيدون مسلكا متشابها مبعثه تشابه معاناة التجربة، ومن ذلك ذكرهما المفردات الدينية كل حسب عقيدته ومذهبه؛ لأن المرء إذا ما غالبته الأقدار وضاقت به السبل ظن أن لا ملجأ من الله إلا إليه، فشكا بثَّه وحزنه إلى مولاه، وهذا ما يتجلى لدى شاعرينا، فنجد المفردات الدالة على الرضا واضحة لديهما.. وسنعرض لذلك عبرَ قصيدة لكل منهما، أما الأولى فهي قصيدة نظمها أبو فراس بعد أن ثقلت عليه جراح الأسر، فكتب بها لوالدته يعزيها:

مصابي جليل، والعزاءُ جميـلُ ... وظنـي بأن الله سوف يُديـلُ
وقبلي كان الغدرُ في الناس شـيمةً ... ودُمّ زمـانٌ، واسـتلام خليلُ
وفارق (عمرو بن الزبير) شـقيقهُ ... وخَلَّى) أميرَ المؤمنينَ (عقيلُ!
فيا أُمَّتَا، لا تَعدمي الصـبرَ، إنه ... إلى الخيرِ والنُّجحِ القريبِ رسـولُ
ويا أُمَّتَا، لا تُحْبطـي الأجـرَ إنه ... على قدرِ الصبرِ الجميـلِ جزيلُ!
أَما لكِ في (ذاتِ النطاقين) أسـوةٌ ... بـ (مكةَ) والحربُ العَوَانُ تَجولُ؟
أرادَ ابنُها أُخذَ الأمانِ فلـم تُجِبْ ... وتعلـمُ علمًـا، أنَّـهُ لقتيـلُ!

وكُوني كما كانت بـ (أُحْدٍ) (صفيةُ) ... ولم يُشفَ منها بالبكـاء غليـلُ!
ومن لم يُرِدهُ اللهُ، في الأمرِ كلّهِ ... فليـس لمخلـوقٍ عليـه سـبيلُ
وإنْ هو لم يَدْلُلْكَ في كلِّ مسلكٍ ... ضللتَ ولو أن السِـماك دليـلُ
إذا ما وقـاك اللهُ أمـرًا تَخـافُـهُ ... فمـا لكَ ممـا تتقيـهِ مُقيـلُ
وإن هو لم ينصُرْكَ لم تلقَ ناصِرًا ... وإن جـلَّ أنصـارٌ وعـزَّ قبيـلُ [٨٤]

ربما يتجلد المرء أمام خصومه فرارًا من شماتتهم وملاحقة أعينهم، أو سعيًا لتفويت فرصة الفرحة عليهم (وتجلُّدي للشامتين أُريهمُ أني لريب الدهر لا أتضعضع) [٨٥] ولكن الشاعر في حالتنا هذه ــ وقد فقد سبل العون من المحيطين ــ خلا بنفسه فاستحضر صورة خليلين ــ سيْرًا على ديدن فحول الشعراء منذ الجاهليين ــ وجعل يقص عليهما فِعل الدهر به، مبينا أن عادات الناس باقية هي هي، فلا يحفلون إلا بمن كانت عنده منفعتهم، فلم يبقَ معه صاحب وقد قلب له الزمان ظهر المجنّ ــ كعادته أزلا.. ويبدو أن هذه التجربة قد صقلت أفكاره ومعانيه وألفاظه فسالت الحكم على لسانه سيلا (إذا ما وقاك اللهُ أمرًا تَخافُهُ فما لكَ مما تتقيهِ مُقيلُ)، (على قدرِ الصبرِ الجميلِ جزيلُ).. ثم يستحضر الشاعر صورة أمه فيبثها أحزانه دون قلق من تخلِّيها عنه أو حذر من فضْح أمره، حتى إذا لمح على وجههاعلامات الأسى والحزن، أشفق عليها مما سبَّبه لها، فراح يسكبُ عليها عبارات المواساة، ويقف بين يديها معزِّيًا لا شاكيا، ويضرب لها الأمثال علها تتصبَّر في غيبته.. فنراه يكثر من هذه الأمثال التي يبين فيها أن ظلمه من القريب والبعيد لم يكن بدعًا من الأمور؛ فأفضل منه قد لاقى من إخوته ما لاقى ولكنه صبر، مثل (أمير المؤمنين، وعبد الله بن الزبير) رضي الله عنهما، وكلاهما تخلّى عنه أخوه.. وإذا كان هذا هو الشائع فلا أقل من أن تتصبَّر أمه كما صبرت من قبلها السيدة (صفية بنت عبد المطلب) وقد جاءها من خبر أخيها (حمزة) في أُحُدٍ ما جاءها، وكما صبرت السيدة (أسماء بنت أبي بكر) وقد جاءها ابنها شاكيًا فلم ترضَ له الاستسلام حتى قُتِل وصُلِب مظلومًا!

فإذا كان أمر الله لا مفرَّ منه فلا أقلَّ من السعي للظفر بالأجر، فالنجاح قريب ولابد للمصائب من زوال، وكيف أن من لم يحمه الله فهو ممزق، ومن لم يُرِدِ الله هدايته فلا مرشد له، ولا ناصر إلاه فظنه بالله أعظم من خطبه، ووقت الكروب لا يجد المرء ملاذًا سوى الله، وهذا ما جعل التعبيرات والألفاظ الدينية يكثر رنينها في تلك القصيدة كـ (وظني بأن الله سوف يديل ــ لا تعدمي الصبر ــ ولا تحبطي الأجر ــوقاك الله أمرًا تخافه ــ وإن هو لم ينصرك لم تلق ناصرًا)

ورغم ما عُرِف من تشيع أسرة بني حمدان إلا أننا لا نلمس في الإشارات السابقة ملامح التشيع واضحةً، ويعزِّز ذلك ذكره للسيدة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.. ولعل الشخصيات الأخرى التي ذكرها أبو فراس في قصيدته لا يختلف على حبها أحد من السنة أو الشيعة، ولا تشير إلى أثر اعتناقه المذهب الشيعي الذي لم يكن مغاليًا فيه.. ويبدو أن الحمدانيين لم يكونوا متشيعي العقيدة بل الهوى حماية لسلطانهم بالشام؛ فـ (تشيعهم كان خفيفا ولم يكونوا كبني بويه الغالين في الشيعة)[٨٦] وبذلك يمكن القول إنهم اصطنعوا التشيع للوصول إلى الحكم والسلطان حتى يأمنوا جانب الكثرة الشيعية المتغلغلة في بغداد مطمئنين إلى أهل السنة من سكان الموصل، (وقد كشف لنا النص أن شيعة الحمدانيين اثنا عشرية).[٨٧]

والأسر والسجن وجهان لعملة واحدة وهي القيد الذي لا سبيل للفكاك منه إلا بإرادة الله ؛ ولذا تتردد المفردات الدينية في شعر ابن زيدون لكنها نابعة من مذهبه السني ؛ لأن التشيع لم يكن قد ظهر في الأندلس في عصر ملوك الطوائف والمرابطين، فقد (ظلت الأندلس في عصر قرطبة أموية الهوى سنية المذهب في الجملة، حتى إذا كان عصر الطوائف ومن بعدهم من المرابطين لم يكن التشيع مجالا سياسيًّا، اللهم إلا دولة بني حمود أصحاب قرطبة ومالقة، وما ذلك إلا لأن بني حمود ينسبون إلى النبي صلى الله عليه وسلم -- فيما يبدو – كانوا معتدلين أو بالأحرى لم يكن لهم مذهب كامل واضح المعالم ولا فقه خاص يميزهم) [٨٨]

أما القصيدة التي سنعرضها لابن زيدون، فتلك التي نظمها وقد مضى على سجنه خمسمائة يوم، وتبدأ القصيدة بمقدمة غزلية لا يتسع المقام لذكرها كاملة ـ مع ضرورة الإشارة إليها لاستجلاء الفارق بين الشاعرين ـ في شكواهما ـ ثم يأخذ بعدها الشاعر في مدح ابن جهور وخلالِه التي يرتكن إليها كل ذي حاجة أو عجز، ويشكو إليه سوء حاله.. قائلًا:

الهوى في طلوعِ تلكَ النجومِ ... والمُنَى في هبوبِ ذاكَ النسيمِ
إذْ ختامُ الرِّضا المَسَوَّغِ مِسكٌ ... ومِزَاجُ الوصـلِ من تسـنيمِ
أيُّها المُؤذني بظلمِ الليـــالي ... ليس يَومِي بواحدٍ من ظَلُـومِ
قَمَرُ الأُفْقِ، إن تأمَّلتَ والشمـ ... ـــس، هُما يُكسفانِ دونَ النجومِ
بوأ الله جهورا شـرفَ السـؤ ... ددِ في السَّرْوِ واللُّبابِ الصميمِ
واحدٌ، سَلَّمَ الجميعُ لهُ الأمرَ ... فكان الخصوص وفقَ العمومِ
أفصبرٌ مئينَ خمسًا من الأيـ ... ـامِ ناهِيكَ من عذابٍ أليم!
نارُ بَغْيٍ سَرَى إلى جنّةِ الأمنِ ... لَظَـاها، فأصبحت كالصـريمِ
بأبي أنتَ، إنْ تشأْ، تَكُ بَرْدًا ... وسـلامًا، كنـارِ إبراهيـمِ
للشفيعِ الثناءُ، والحمدُ في صَوْ ... بِ الحَيا للرياحِ، لا للغيومِ[٨٩]

الناظر في تلك القصيدة ـ المدحية بالأساس ـ يلمس العديد من اللمحات الدينية التي أشارت إلى سعة ثقافة ابن زيدون دون الخوض في معاني القصيدة وجمالياتها، فيظهر تأثره في قوله: (ومِزَاجُ الوصلِ من تسنيمِ) بقول الله تعالى: " ومِزَاجُهُ من تسنيمِ " سورة المطففين: آية (٢٧) وتعبيره بـ (بوأ الله) في مدح أبي الحزم من التعابير القرآنية " وإذ بوَّأنا لإبراهيم مكان البيت " سورة الحج، من الآية (٢٦) وفي قوله (الخصوص والعموم) إشارة إلى إحدى القواعد الفقهية.. وفي وصفه للأيام التي قضاها في السجن، يقتبس بعض الآيات التي ورد فيها صفة (العذاب الأليم) كقوله تعالى: " في قلوبهم مرضٌ فزادهم اللهُ مَرَضَا ولهم عذابٌ أليمٌ بما كانوا يكذبونَ " سورة البقرة: آية (١٠) وغيرها من الآيات.. وحينما يصور لنا تحول حياته بنار البغي والوشاية في جنة الأمن إلى الصريم، تأثر بقوله تعالى: (فأصبحتْ كالصريم) سورة القلم: الآية (٢٠) وتصل المبالغة ذروتها في وصف قدرة أبي الحزم؛ فرضاه برد وسلام، كالنار على إبراهيم بعد أن ألقاه فيها الكفار، إشارة إلى قوله تعالى: (قُلْنا يَا نَارُ كُوني بَرْدًا وسلامًا على إبراهيمَ) سورة الأنبياء: آية (٦٩)

ومن خلال عرض المفردات الدينية نلاحظ ما يلي:

- أن ابن زيدون بدأ قصيدته بالغزل الذي توحي به الطبيعة الأندلسية بجانب ما عُرِف من تكوينه الشخصي الذي يمثل الغزل معلمًا أساسيا منه، على حين نجد أبا فراس وقد بدأ قصيدته مباشرة بما يتناسب مع تكوينه كأمير فارس، بلغ منه الأسرُ مبلغًا، ووجد من الحياة والأحياء ما لم يكن ينتظر، إذ كان قبل هذه التجربة يناله من التملّق ما لم ينَل غيرَه من عموم الناس، فأنى له البدء بالغزل وقد ملأت حلقَه مرارةٌ نغَّصت عليه عيشه حبيسًا.
- أن المعاني الدينية التي أوردها ابن زيدون لا تتبع من استشعاره بهذه المعاني بقدر ورودها من منطلق إظهار ثقافته الواسعة.. فهي معانٍ عادية ألبسها ألفاظًا يحرص على إخبارنا بعلمه بها.
- عند اقتباس التراث نجد أبا فراس يُسلِّي أمه بقصص بطلاتُها نساء مشهود لهن بالشجاعة والتجلُّد أمام فقْد رجالهن، ومنهن السيدة صفية وقد جاءها نبأ استشهاد أخيها حمزة ــ أسد الله ــ فصبرت ولم تجزع، والسيدة أسماء رضي الله عنها وقد ودَّعت ابنها الوداع الأخير وهي تعلم أنه متجه إلى الموت.. وعندما يعبر الشاعر عن تخلِّي الجميع عنه استحضر قصة علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنه، كرم الله وجهه ــ إذ تخلّى عنه أخوه عقيل بن أبي طالب وهو أولى الناس بنصرته.
- لم يستطع ابن زيدون التخلي عن طابعه الرومانسي، فمحور قصيدته بيان الحالة السيئة التي وصل إليها بعد ما كان عليه من حلو العيش وطيب المقام، ولعل استحضاره للمعاني الدينية التي ذكرها كان لبيان سعة ثقافته كما أسلفت، أو لبيان أكبر نقيضين نعرفهما، وهو النقيض بين الجنة والنار بما يكثر لهما من أسماء وصفات.

<u>نتائج البحث</u>

من العرض السابق تظهر لنا بعض النتائج الهامة، ومنها:

- أن كلًا من أبي فراس الحمداني وابن زيدون من الشعراء المجيدين، فكلاهما يجمع بين الجزالة والفخامة، إضافة إلى عنصر هام قد لا نجده عند الكثير من الشعراء ألا وهو الذاتية.
- حرص كل منهما على الموسيقى الخارجية المتمثلة في الوزن والقافية، والموسيقى الداخلية من جناس وطباق وترادف وتضاد.. وغيرها، مع عدم إغفال اختيار الكلمات التي تدل على مرارة الأسر، وهذا ليس بغريب فكلاهما احتذى بالبحتري.
- اتسق معجم كل منهما وفق مزاجه وشخصه، فحفلت أبيات أبي فراس بمفرداتٍ دالةٍ على فروسيته في الحروب كـ (العدا - الجيش- السيوف - الموت - الوغى - الرمح - القنا البيض – الضمر الشُّقر) على حين غلبت مفردات الطبيعة على شعر ابن زيدون مثل (النسيم -النسرين - الريحانة -الروضة - الزهرة - الجنة) مع ورود الطبيعة في شعر أبي فراس ولكن ليست بكثرتها لدى ابن زيدون، ومجيء المفردات الحربية عند ابن زيدون ولكن لتصوير قسوة الليالي وهي ترميه بالقسي أو القنا.
- يفيض شعر أبي فراس بمحسنات المعنى أما محسنات اللفظ فلا يقع منه إلا النذر كـ (ضلَّ وذلَّ- عوراء وعورة) في بائيته، على حين يكثر ابن زيدون من المحسنات اللفظية ويتجلى ذلك في نونيته كـ (يضحكنا ويبكينا - بيضًا وسودًا- انحلَّ ومعقودًا)

- يعكس شعر كل منهما ثقافته بروافدها من مختلف العلوم والآداب؛ فتظهر لنا الإشارات الدينية والتاريخية، والاقتباسات الشعرية من العصرين الجاهلي والأموي، وما سبق من العصر العباسي.
- حرص أبو فراس على أن يبتلع أحزانه، فلم يبُح بها إلا حيث توقّع مردودًا عمليًّا من وراء ذلك، ومنها شكواه لأمه، وعتابه لسيف الدولة، واستعطافه ولديه.. إلخ، أما ابن زيدون فكثيرًا ما كان يجعل الناس طرفًا في حديثه ويحرص على استجلاء آرائهم كقوله: (من يسأل الناس عن حالي فشاهدها محضُ العتابِ الذي يُغني عن الخَبَرِ) وقوله: (وإن لم يبدُ شدٌّ ولا قمطُ)
- رغم إظهار كلا الشاعرين التجلّد في مواجهة القضبان إلا أنهما كانا واضحين في عتابهما على تواني من بيده خلاصهما.

الهوامش:

١ د. خليل الدويهي. ديوان أبي فراس الحمداني ص٧، ٨ شرح. ط دار الكتاب العربي – بيروت. نقلا عن ترجمة الشاعر من وفيات الأعيان
٢ د. شوقي ضيف. الفن ومذاهبه في الشعر العربي (أبو فراس الحمداني) ص ٧١. طبعة دار المعارف.
٣الصفدي. (تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب)
٤ انظر ترجمته في (جامع التواريخ) للتنوخي أو (نشوار المحاضرة وأخبار المناذرة (
٥ ترجمته في (تاريخ الإسلام) للذهبي ١ترجمته في (المختصر في أخبار البشر) أو (أخبار الإسلام) لأبي الفداء.
٦ البستاني. فؤاد أفرام. ابن زيدون، الروائع، منشورات دار الشروق، بيروت ١٩٨٢ م ط٥ ص١١
٧ ابن خلكان. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ط القاهرة ١٨٨١ م ج١ ص ١٢١٤
٨ المقري نفح الطيب ج ٥ ص ١٦٨ط محي الدين بن عبد المجيد
٩ المصدر السابق ص١٦٣
١٠ دكتور أحمد هيكل. قصائد أندلسية. ص٢٧. ط دار غريب. القاهرة.11
١١ د. شوقي ضيف. ابن زيدون ص٤٠.
١٢ د. عبد الله التطاوي. القصيدة العباسية قضايا واتجاهات ص٣٢٨. ط دار غريب.
١٣ ابن بسام. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ص٢٩٠ ط ١٨٩٥
١٤ انظر تاريخ الفكر الأندلسي ص٨٦، د. أحمد عبد العزيز. قضية السجن والحرية في الشعر الأندلسي ص٢٥٣ مكتبة الأنجلو.
١٥ المراكشي المعجب في تلخيص أخبار المغرب تحقيق: محمد سعيد العريان ص١٠٦
١٦ ابن دحية. عمر. المطرب من أشعار المغرب ص ١٥٥
١٧ ابن خاقان القيسي. الفتح ابن محمد قلائد العقيان ص ٧٠
١٨ ابن دحية. عمر، المطرب من أشعار أهل المغرب طبعة القاهرة ١٩٢٦ م ص ١٥٥
١٩ ابن زيدون ص ١٨ د. شوقي ضيف ط دار المعارف
٢٠ نفح الطيب ج٢ ص١٠٩٩ للمقري
٢١ الذخيرة ج١ ص٣٤٤، كتابات كور عن ابن زيدون بالفرنسية
٢٢ ابن زيدون. الديوان ص١٢٥
٢٣ الروائع ص٥٢-٧٢ فؤاد أفرام البستاني وانظر ابن زيدون شاعر العشق والحنين ص٧٧-٧٨ د. عبد المجيد الحر. ط دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.
٢٤ ديوان أبي فراس ص٤٥. المتاب: التوبة، الرجوع عن الخطيئة. الخريدة: الفتاة العذراء. الكعاب: المرأة التي نهد ثديها .
٢٥ الديوان ص ١٦٢ أضواني: أضعفني. خلائقه: صفاته. الكبر: الأنفة. الجوانح: الضلوع. أذكتها: أشعلتها. الصحائف: جمع الصحيفة، وهي الكتاب بشر: محو. تروغ: تميل سرا. الوقر: الصمم يقول: إنها تسمع أقوال الوشاة، وهو يعطيهم أذنا صماء. القفر: التي لا ناس فيها ولا ماء ولا شجر .بدوت: أقمتُ في البادية. حاضرون: مقيمون في الحاضرة، وهي ما يقابل البادية، وقور: يعني محبوبته . ريعان الشباب: شدته وعنفوانه . تأرن: تنشط وتمرح. الميثاء: ما اتسع من فوهة الوادي . ظمياء: صفة للشفة الذابلة في حمرة، أو للعين الرقيقة الجفن. جللها: اكتنفها. الذعر: الخوف الشديد. الطلاء: ولد الظبية . الحضر: الركض.
٢٦ اللغة العربية من ديوان الشعر العربي ص١٣٨ جمع وتصنيف نخبة من أساتذة اللغة العربية وآدابها .أ.د أحمد غلي مرسي . أ.د أحمد شمس الدين الحجاجي. أ.د إبراهيم الدسوقي . د .عوض الغباري . د. تغريد حسن . أ. عزة شبل .نشر كلية الآداب . جامعة القاهرة سنة٢٠٠٥م-٢٠٠٦م .
٢٧ السابق ص١٣٩

٢٨ د .محمد الزين زروق .الكاشف في تحليل النصوص الأدبية الجزء الأول .ص١٧٢ . ط مكتبة الرشد سنة ٢٠٠٧
٢٩ ورد البيتان في نفح الطيب للمقري ج١ص٦٣١. العين: ذات الشيء نفسه . الأثر: ما بقي من معالم الشيء ورسومه .
٣٠ ديوان ابن زيدون ص١٠٢-١٠٣. ذماء الليل: بقية الروح. الجون: الأسود المظلم. الضنى: الهلاك. العنن، مصدر عن الشيء: ظهر واعترض . الردى: الموت. الطرف، بسكون الراء: النظر . الحوار: الإجابة والمراجعة في الكلام . الحور: اشتداد سواد العين وبياضها مع اتساعها. التوم، واحدتها تومة: اللؤلؤة. الثغر، ثغرة: الطريق.

الغرر، الواحد غرة: الغفلة. الإلمامة: الإشارة الخفيفة. معتاد: من اعتاده أي زار غبا مرة بعد مرة .
٣١ ديوان ابن زيدون ص١٦٢-١٦٣ شحطت الدار وشحطت: بعدت. النأي: البعد. المزار: الزيارة. ألوت: ذهبت. العقد: العهد. الشت: البعد والتفرق. المشتط: الجائر. الكرى: النعاس. الزيارة الغبّ: الزيارة مرة بعد مرة. الجوانح، الوحدة جانحة: أضلاع الصدر. النطفة: الماء الصافي النمير. الوقط: حفرة في الصخر تجمع ماء المطر. بأبرح: بأشد ألما وعذابا. أدير المنى عنه: أي أجعل المنى تتركه. القتادة: شجرة لها شوك كالإبر. وخرط القتاد: انتزاع لحائها أو شوكها باليد. الوجد: شدة الشوق. أشكل: اختلط الأمر.
٣٢ سيرد تناول القصيدة أثناء الحديث عن المفارقة في شعر الشاعرين.
٣٣ قريع العرب: سيدهم.
٣٤ معجم المعاني الجامع
٣٥ في قوله: (لا بل غلامك) تذلل لابن عمه كي يفديه من الأسر.
٣٦ الجِدَب: الحنون و(المكان) مكان (الجناب)؛ و(الرحب) مكان (الخصب). الجناب: الناحية الكرب: المصائب.
٣٧ ديوان ابن زيدون ص٥٥-٥٦
٣٨ ابن زيدون. الديوان، تحقيق: درويش الجويدي، ط المكتبة العصرية. بيروت ٢٠٠٩ م
٣٩ ديوان ابن زيدون ص٥٥-٥٦
٤٠ أبو فراس. الديوان ص٥٦ شيمتي: طبعي يَكر: يواصل
٤١ الديوان ص ٥٦ لا تعدمي: لا تفقدي. الملمة: المصيبة. القيل: مُعين، منهض من السقوط. جلّ: عظم. قبيل: قبيلة.
٤٢ ابن زيدون. الديوان ص ١٠٤، ١٠٥. العارض: صفحة الخد كثب: قريب مهتصر: مكسور غير بادي الكسر قادحة: مشتعلة. المعنَّى: المتعب الخطر: المقام أو المنزلة.
٤٣ ابن زيدون. الديوان ص ٥٦ تؤسى الجراح: تداوى.
٤٤ أبو فراس. الديوان ص ٢٥.
٤٥ وردت آيات كثيرة توضح جواز الشفاعة في الدنيا والآخرة، لا يتسع المقام لحصرها.
٤٦ أبو فراس. الديوان ص ٢٨٨. يفري النحور: يقطع الرقاب. ريب المنون: الموت
٤٧ أبو فراس. الديوان ص ٤٧. الحوطة: الاحتياط. مناب: مصدر ناب بمعنى قام مقامه
٤٨ ابن زيدون. الديوان ص ١٠٨
٤٩ أبو فراس. الديوان ص ٨٥، ٨٦. غيبًا ومشهدًا: في غيابي وحضوري. المجن: الترس الذي يقيهم الضربات. المهند: السيف. ناب خطب أو ألمَّت ملمَّة: حلّت مصيبة. سفاهة: طيشًا. تركتهم سدى: تركتهم غير نافعين لشيء. أصبحوا عِدا: أصبحوا أعداء.
٥٠ ابن زيدون. الديوان ص ٣٥، ٣٦. الفواغر: الواحد، فاغر، الفاتح فمه. القِرى: الضيافة. الثقاب: عود الكبريت. لجّ بالخصام: تمادى في العناد. الألد: الشديد الخصومة
٥١ ابن زيدون. الديوان ص ٣٧، ٣٨ النبو: التجافي. الظراب: الواحد: ظرب، وهو ما نتأ من الحجارة وحدَّ طرفه. الهزبر: من أسماء الأسد ذَيد: مُنع وأُبعِد. حجرتيه: ناحيتيه. اللواب: العطش. نجِّدني: جرِّبني. السِّخاب: العقد
٥٢ الممدوح غالبا هو سيف الدولة في شعر أبي فراس، وهو أبو الحزم ابن جهور في شعر ابن زيدون.
٥٣ قريع العرب: سيدهم. المشمخر: المتكبر. الجِدَب: الحنون. الجناب: الناحية. العافي: الفقير. ترب: تستزاد
٥٤ الشيمة الرسل: الخلق السهل. الحفيظة: الغضب. المستعتب: المسترخي.
٥٥ ديوان ابن زيدون ص ١٠٤-١٠٨
٥٦ الديوان ص٥٦. شيمتي: طبعي
٥٧ ديوان أبي فراس. ص ٢٦
٥٨ ابن زيدون. الديوان. اللظى: النار، اللهب. الصريم: الليل.
٥٩ ابن زيدون. الديوان ص ٥٦
٦٠ أبو فراس. الديوان. ص ٤٢، ٤٣. ناءٍ: بعيد. عازب: مائل وبعيد
٦١ أبو فراس. الديوان. ص ٩٩. سؤددي: عزي ومجدي.
٦٢ ابن زيدون. الديوان ص ١٠٨.الغير. تبدّل الأحوال. انصرمت: انتهت أو انقضت
٦٣ أبو فراس. الديوان. ص ٦٤. مقلتي: عيني. سُبات: نوم
٦٤ .
٦٥ الديوان ص ٣٤١
٦٦ أبو فراس. الديوان ص ٢٢٥
٦٧ أبو فراس. الديوان ص ٢٥
٦٨ فنون الأدب العربي الغنائي. الوصف. ص٩٤، اشترك في وضع هذه المجموعة لجنة من أدباء الأقطار العربية.

طبعة دار المعارف.
٦٩ أبو فراس. الديوان ص ٩٨
٧٠ ديوان ابن زيدون ص١٠٥. نجم الأرض: أعشاب صغيرة
٧١ ديوان ابن زيدون ص١٠٥
٧٢ عضَّ مني: عابني، نال مني. الإسار: الأسر.
٧٣ ديوان ابن زيدون. ص١٦٤-١٦٥. تحقيق: درويش الجويدي ط المكتبة العصرية. بيروت ٢٠٠٩ م. القمط: شدّ يدي الأسير ورجليه بالحبل. مِيصَ الإناءُ: غُسِل بالأصابع. المِسط: بلُّ الثوب ثم تحريكه لاستخراج الماء.
٧٤ أبو فراس. الديوان ص ٣٣. الغواية: الضلال.
٧٥ أبو فراس. الديوان ص ٥٨ (وردت هذه الأبيات بعد خروجه من الأسر في المرة الأولى، حيث أسر مرتين)
٧٦ ديوان ابن زيدون ص١٠٤.
٧٧ معجم المعاني الجامع ط مركز زايد للتراث والإبداع.
٧٨ أبو فراس. الديوان ص ١١٦. سراتنا: سادتنا
٧٩ ديوان ابن زيدون ص٢٨٧-٢٧٩. غص بالماء: شرق به. التجافي: المقاطعة. حالت: استحالت أي تحولت من حال إلى حال.
٨٠ د. أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ص٢١٢.طبعة دار المعارف.
٨١ أبو فراس. الديوان ص ٢١٥، ٢١٦. الرائد: الدليل. الوساع: الاتساع، أو السعة. ذو الكلاع: يزيد بن النعمان، حكم أزد اليمن، وكان الروم يُهدونه الأثواب الموشَّاة. البيض: السيوف
٨٢ البائن البادي. المعلم: المميز بعلامة من طرازه وغيره. الطرر، الواحد طرة: علم الثواب. النوافح: العرف، الطيب. المختالة: يقصد بذلك الصحيفة في البيت السابق. الكعاب: الجارية نبت ثدياها. الحبر: الواحدة حبرة، ضرب من الأثواب. الماء الآسن الفاسد: عتباك: رضاك. أسفرت: أبدت. البشر: الواحدة بشرى. الخفر الستر. حرام على الآفات والغير: لا تبدِّله صروف الدهر. انصرمت: انتهت
٨٣ د إحسان عباس. تاريخ الأدب الأندلسي. عصر الطوائف والمرابطين ص ٨٢
٨٤ ديوان أبي فراس ص ٢٥٢-٢٥٣. الحرب العوان: الشديدة. السماكان: نجمان نيران، أحدهما في الشمال ويعرف بـ(الرمح) والثاني في. الجنوب ويعرف بـ (الأعزل). المقيل: مُعين، منهض من السقوط. جلَّ: عظم. قبيل: قبيلة.
٨٥ البيت للشاعر: أبو ذؤيب الهذلي (خويلد بن خالد بن محرث) شاعر فحل، مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وعاش إلى أيام عثمان.
٨٦ أبو العباس أحمد بن يوسف الدمشقي القرماني. أخبار الدول وآثار الأول ص٢٦٧ ط حجر بغداد سنة ١٨٨٢م
٨٧ مصطفى الشكعة. الأدب الأندلسي: موضوعاته ومقاصده، دار النهضة العربية للطباعة والنشر
٨٨ انظر مقالة الدكتور محمود مكي عن التشيع في الأندلس في صحيفة المعهد المصري ١٣٣ (١٩٥٤) العدد الثاني. نقلا عن تاريخ الأدب الأندلسي عصر. الطوائف والمرابطين ص١٦٧-١٦٨ دكتور إحسان عباس " دار الثقافة بيروت
٨٩ ديوان ابن زيدون ص٢٧٠-٢٧٣ التسنيم: من عيون الجنة بوأ: أجلس، أقام في مكان عالٍ السرو: المروءة والشرف. اللباب: المختار الخالص من كل شيء، والخالص المحض. الصريم: الليل. الشفيع: الضامن بالحماية. الصوب: الضباب الممطر الحيا: المطر.

المصادر

١. البستاني. فؤاد أفرام. ابن زيدون، الروائع منشورات دار الشروق، بيروت ١٩٨٢ م
٢. التطاوي. عبدالله. القصيدة العباسية قضايا واتجاهات. ط دار غريب للنشر والتوزيع. القاهرة
٣. التنوخي. أبو علي المحسن بن علي (جامع التواريخ) تصحيح: د س مرجليوث ط أمين هندية
٤. الحر. د. عبد المجيد. ابن زيدون شاعر العشق والحنين ط. دار الكتب العلمية. بيروت. ١٩٩٣
٥. الحمداني. أبو فراس الديوان شرح الدكتور خليل الدويهي. ط دار الكتاب العربي – بيروت. ٢٠٠٧ م
٦. مؤنس. حسين. تاريخ الفكر الأندلسي. (ترجمه لأنخل جونثالث بالنثيا). ط بيروت. لبنان.
٧. ابن خاقان القيسي. الفتح بن محمد بن عبد الله. قلائد العقيان. تحقيق د. يوسف خربوش. ط. مكتبة المنار. سنة ١٩٨٩م.
٨. ابن خلكان. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ط القاهرة ١٨٨١ م ج١
٩. ابن دحية. عمر. المطرب من أشعار المغرب. ال قاهرة١٩٢٦ م

١٠. الذهبي (تاريخ الإسلام) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. تحقيق: د / عمر عبد السلام تدمري، ط دار الكتاب العربي ١٩٩١ م
١١. الركابي. جودت، في الأدب الأندلسي ط دار المعارف ١٩٨٠ م
١٢. زروق. محمد الزين. الكاشف في تحليل النصوص الأدبية. جزء أول. الطبعة الثانية. مكتبة الرشد. سنة ٢٠٠٧م.
١٣. الشكعة (مصطفى) الأدب الأندلسي: موضوعاته ومقاصده، دار النهضة العربية للطباعة والنشر. بيروت ١٩٧٢ م
١٤. الشنتريني. ابن بسام (علي أبو الحسن). الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ١٨٩٥ م
١٥. بن صراي (حمد محمد)، الشامسي (يوسف محمد) معجم المعاني الجامع ط مركز زايد للتراث والإبداع. ٢٠٠٣ م
١٦. الصفدي (تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب) القاهرة ١٩١١ م
١٧. ضيف. شوقي. ابن زيدون ط ١٢ دار المعارف ١٩٩٠ م
١٨. ضيف. شوقي. الفن ومذاهبه في الشعر العربي. طبعة دار المعارف ١٩٨١ م
١٩. عباس. د. إحسان. تاريخ الأدب الأندلسي. عصر الطوائف والمرابطين ط ٧ دار الثقافة. بيروت ١٩٦٢ م
٢٠. عبد العزيز. د. أحمد. قضية السجن والحرية في الشعر الأندلسي. مكتبة الأنجلو ١٩٩٠
٢١. أبو الفدا. عماد الدين إسماعيل. (المختصر في أخبار البشر) ط المطبعة الحسينية المصرية ١٣٢٥ هـ
٢٢. القرماني. أبو العباس أحمد بن يوسف الدمشقي. أخبار الدول وآثار الأُوَل ط بغداد سنة ١٨٨٢م
٢٣. المراكشي (عبد الواحد بن علي التميمي محي الدين) المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تحقيق: محمد سعيد العريان. القاهرة ١٩٤٧ م.
٢٤. المقري (أحمد بن محمد). نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ط بولاق. مصر ١٨٦٢م
٢٥. مكي. د. محمود. مقال عن التشيع في الأندلس، صحيفة المعهد المصري (١٩٥٤) العدد الثاني.
٢٦. هيكل. د. أحمد الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة. طبعة دار المعارف ٢٠٠٤ م
٢٧. هيكل. د. أحمد قصائد أندلسية. طبعة دار غريب للنشر والتوزيع القاهرة.
٢٨. اللغة العربية من ديوان الشعر العربي. جمع وتصنيف نخبة من أساتذة اللغة العربية وآدابها. أ.د أحمد علي مرسي. أ.د أحمد شمس الدين الحجاجي. أ.د إبراهيم الدسوقي. د. عوض الغباري. د. تغريد حسن. أ. عزة شبل. نشر كلية الآداب. جامعة القاهرة سنة٢٠٠٥م-٢٠٠٦م.
٢٩. فنون الأدب العربي الغنائي. الوصف. إعداد لجنة من أدباء الأقطار العربية. طبعة دار المعارف